سلسلة الآثار الكاملة - ١١ -

التشيع مسؤولية

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة ودراسة وتعليق

د. إبراهيم دسوقي شتا

مراجعة

حسين علي شعيب

دار الأمير

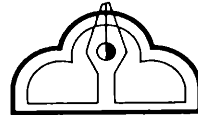
التشيع مسؤولية

بسم الله الرحمن الرحيم

إسم الكتـاب :	التشيع مسؤولية
إسم المؤلـف :	د. علي شريعتي
دراسة وترجمة:	د. إبراهيم دسوقي شتا
تنضيد وإخراج :	زهرين
تصميم الغلاف:	بشير محمد
الترقيم الدولي :	ISBN 978-9953-494-19-7
الطبعة الأولى :	١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م
الطبعة الثانية :	١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م (بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)
الناشـــــر :	دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:

دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+

ص.ب : 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com

E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار

الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+

ص.ب: 6516-19395 طهران

www.shariati.com

وتستمر دار الأمير...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

التشيع مسؤولية[1]

مسؤولية أن يكون المرء شيعياً

بالإضافة إلى بحث مسؤولية أن يكون المرء شيعياً بحثٌ علمي وفلسفي وعقائدي شديد العمق، يقع في نطاق بحث الباحث والمفكر ومن هو ملم بالقضايا العلمية، يعد أيضاً بحثاً عاماً، فكل من يؤمن بمدرسة فكرية أو مذهب يستوجب مسؤوليات على نفسه.. وكون المرء مؤمناً بالتشيع لا يستثنى من هذه القاعدة. وكل إنسان.. أياً كان مستواه من الفكر العلمي.. ينبغي عند الإيمان بأية مدرسة فكرية أو مذهب أن يجد نفسه في مواجهة سؤال هو: «أية مسؤوليات يضعها إيماني على عاتقي؟» خاصة إذا كانت القضية هي أن يكون المرء شيعياً وتكون المسؤولية أكثر جدية وأكثر ثقلاً.. لأن إحدى خصائص المذهب الشيعي ـ بالنسبة لسائر المذاهب الشقيقة في الإسلام ـ تكمن في تعريفه للإيمان».

تعريف الإيمان في التشيع:

يضيف علماء الشيعة في تعريف الإيمان إلى جوار الإيمان

---

(١) «مسؤوليت شيعة بودن: مسؤولية أن تكون شيعياً» نشرت لأول مرة في حسينية الإرشاد في أبان ماه سنة ١٣٥٠ (١٩٧١م) ومترجمة عن النسخة المصورة من قبل اتحادية انجمن هاي إسلامي دانشجويان در اوريا وانجمن إسلامي دنشجويان در آمريكا وكانادا الطبعة الثانية ١٣٥٦هـ.

بالقلب والإقرار باللسان ـ شرط العمل والتنفيذ أو اصطلاحاً العمل بالجوارح(١) أي مبدأ «أصالة العمل»، كما يطرح مبدأ «التطبيق» في الوجودية، أي أن العمل هو موجد الواقع والحقيقة.. وبدون الاعتماد يتساوى مع الكفر والإنكار؛ لأنه على حد قول رجرييه أحد النقاد الفنيين الوجوديين: «إن الفنانين العظام يتساوون في ما لم ينتجوا مع من يفتقرون إلى الفن تماماً». فالفردوسي ومولانا جلال الدين الرومي مثلاً بتأليفهما للشاهنامه والمثنوي فنانان وشاعران، لكنهما فيما لم ينتجا يتساويان مع أولئك الذين يعجزون حتى عن القراءة والكتابة، ونحن نسميهم فنانين وشعراء بشكل ذهني بحت وإن لم يتساووا فيما أنتجوا.. من حيث أنهم لا يعملون بها.

والمفكر التقدمي الواعي الذي يعلم ولا يعمل، يستوي مع المنحط الجاهل النائم الذي لا يدري ماذا يفعل، والذي يقوم بتحليل كل القضايا الاجتماعية بدقة وبشكل علمي، ثم ينسحب من كل التزام بمسؤولية اجتماعية.. قيمة وجوده مساوية تماماً لوجود ذلك الذي لا يدري أصلاً ما هو المجتمع، ذلك لأن الشر والخير والإيمان والكفر (وكون المرء شيعياً وكونه غير شيعي) إنما تتم وتتحقق بعد العمل. ويثبت علماء الشيعة بهذا المبدأ الإضافي، أي مبدأ العمل، إلى أي حد تؤمن الرؤية الأصلية الشيعية مبدأ المسؤولية، مبدأ أعلى من الواجب والتكليف، أصالة كافية في كون

---

(١) هذا هو الإيمان بالفعل في الإسلام ككل الإيمان هو «ما وقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدقه العمل» و«الإيمان معرفة بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان» و«الإيمان والعمل قرينان لا يصلح كل واحد منهما إلا بصاحبه» كلها أحاديث نبوية انظر الجامع الصغير ١/ ١٢٤. «المترجم».

المرء شيعياً وليس واجباً على كل فرد أن يؤديه بعد أن يكون شيعياً.

المسؤولية:

المبحث الأساسي في عالم اليوم هو الذي منح قضية المسؤولية قيمة وعمقاً أكثر مما نفهمه نحن عن هذه الكلمة في الفارسية.

إن أصل الإيمان بمبدأ المسؤولية أو «حرية الفنان» سبب أعظم تصادم بين القطبين الفكريين في العالم في الشرق والغرب: هل الفنان هو الذي يخلق على أساس القيم المجردة الفنية التي يؤمن بها هو نفسه، والمعايير التي يقبلها هو نفسه؟! أو أن الفنان خلّاق يعتبر نفسه مسؤولاً عن إجراء التزام ما قبل أن يعطي الأولوية لعمله الفني.. ويعتبر عمله وسيلة للوصول إلى الهدف الذي يعده رسالة له؟! هذان التعريفان قسما العلماء والمفكرين والفنانين والكتاب خاصة في العالم إلى قطبين متضادين.. ووضع مبدأ الفن للفن في مواجهة الفن من أجل الإنسان ومن أجل التقدم ومن أجل الخلاص والحرية للإنسان والمجتمع.. مبدأ الفن للمجتمع!!

هل العالم علم في حد ذاته ومن أجل ذاته؟! أو أنه وسيلة في خدمة احتياجات البشر وجماهير الناس والمجتمعات الإنسانية؟!

هل الذي استطاع أن يخلق عملاً يثير العواطف، أو يصنع من عناصر الكلام قطعة جميلة، يعتبر شاعراً أو أن الشاعر هو من يستخدم كل قدراته على البيان لكي يساعد البشر للوصول إلى أهدافهم ويمنحهم الوعي بالحياة والأحساس والمسؤوليات وبتناقضات مصيرهم؟! أي واحد من هؤلاء شاعر حقيقي؟!

أقول في عبارة واحدة نقلاً عن نيتشه[١]: «الفن للفن، والعلم للعلم، والشعر للشعر خدعة من أجل إخفاء كون الفنان أو العالم جثة، والهروب من الالتزام بالمسؤوليات الاجتماعية بشكل محترم».

طرح المأساة:

في القرن العشرين طرحت مأساة عظيمة الشكل بشكل شديد العمق وبفن، ووجد العلم قيمة في حد ذاته أي من أجل العلم ذاته، لا أن يكون في خدمة إثبات مذهب أو إنكاره، أو في خدمة إثبات مدرسة فكرية أو إنكارها، ولا في خدمة إيديولوجية وإثباتها أو إنكارها، أو ببساطة ليس من أجل إحقاق حق أو إبطال باطل. . فأنا كعالم اجتماع، لا أجعل علم الاجتماع الذي انتسب إلى حلقته وسيلة من أجل تشكيل مدرسة فكرية للناس أو اقتراح حلول، أو أن أقوم عن طريق المعارف العلمية الاجتماعية التي عندي بتخليص الناس وهدايتهم لأن علم الاجتماع ليس تقنية، وليس «تكنيك» يقدم الحلول، وليس نبوة تهدي، وليس مسؤولاً عن إنكار مدرسة فكرية أو هدف ما أو إثباتهما. إن عمل عالم الاجتماع محدود بأن يقوم بتحليل واقع ما في المجتمع، أو واقع ما باسم المجتمع، أن يقول فحسب: إن ظهور ظاهرة كذا في العالم تؤدي إلى كذا من العواقب. . وأن وضعاً ما قد ظهر في المجتمع لهذا السبب أو لهذه الأسباب، وعندما نسأله عن طريق الحل والخلاص يقول: لست مسؤولاً عن الإرشاد، هذا هو عمل الفلسفة والإيديولوجية والمذهب. . وعندما تبحث عن عالم تسمع إجابته: إن الجواب على ما

(١) فردريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) فيلسوف ألماني أخذ بمذهب التطور وقال إن الحياة ليست غير تنازع البقاء وبقاء الأصلح. وإن «الانسان الأعلى» هدف يجب الوصول إليه. (الناشر).

تسأل يجعل العالم خادماً لأهداف معينة. . في حين أن العالم حر!!

تسأل عالم الاجتماع: هل الرأسمالية هي التي تبني المجتمع أو غير الرأسمالية. . فيجيبك: لا دخل لي بهذا. . إنني أتحدث فحسب عن الرأسمالية كظاهرة، كيف ظهرت؟! وما الذي طرأ عليها من تطور. . وما أنواعها؟ موضوع أنها صالحة أو غير صالحة ينبغي أن يؤدي إلى المحافظة عليها أو تدميرها. . وهذا أمر لا دخل لي به. . إنني أستطيع أن أحلل ظاهرة الجوع. . لكن بيان السبيل إلى إشباع الجوعى ليس من تخصصي!!

ترون كيف أن نقاب «الحقيقة العلمية» الجميل و«الحرية وعدم الالتزام» و«انتفاء المسؤولية عن العالم» و«شعار حرية العلم والعالم» تحرم جماهير البشر والإنسانية والمجتمعات التي تعاني التناقض والتفرقة والتضاد، من أن تبحث عن طريق للنجاة من أنواع الوعي والتنوير والمساعدات التي يمكن للعلم خاصة علم الاجتماع أن يمنحها.

ومن هنا لا يكون العلم في خدمة الناس، فعالم الفيزياء يريد فحسب أن يكشف حقائق العالم، وعالم الاجتماع يهتم فحسب بتحليل الحقائق الاجتماعية. . ولا شيء آخر. . وعلماء النفس والتعليم والتربية والاقتصاد هم أيضاً على نفس هذا النسق. وعندما يكون العلم في غير متناول أيدي الناس، وينكص عن هداية الخلق والالتزام بالمسؤولية، ويصبح منزوياً معتزلاً مبعداً، يصبح لقمة دسمة جداً من السهل تماماً أن يخضع لسيطرة القوى المختلفة. . كما هو حادث اليوم، صار العلم الحر من زينة الإيديولوجية ـ أو أية مدرسة فكرية أو دين ـ تحت سيطرة أعداء الناس وأعداء الإيمان والهدف وخلاص البشرية أكثر مما كان من قبل. .

«فلنحب الفن من أجل الفن» أي تسلية الناس بالمتع والجماليات المجردة، وجعل الفن أيضاً تسلية للخلق بهذه الفنون الجميلة والتي يستطيع أن يتمتع بها فحسب أولئك الذين يعيشون في رفاهية مادية واجتماعية، ويريدون ملء أوقات فراغهم بأنشطة فنية. . والخلاصة: أصحاب الكروش من المليونيرات الذين يشترون اللوحات الفنية من المزادات والمعارض بأثمان تذيع شهرتها، أولئك الذين يمتلكون من الفن المال فحسب وفن «امتصاص الخلق» والكيد!!

ومن هنا نرى أن الفن من أجل الفن قد تبدل إلى «الفن من أجل الأرستقراطية والرفاهية»، واللوحة الفنية التي يقوم المصور برسمها من أجل إشباع رغبة فحسب دون أي اهتمام بأن تعجب الناس أو لا تعجبهم، وتهمهم أو لا تهمهم، تنتهي فحسب إلى لقمة في أفواه المناقصات والمزايدات ثم إلى قصور المليارديرات.

إن فصل المسؤولية عن العلم والأدب والشعر والفن هي في الأصل حيلة من القوى المسلطة على البشرية، حتى يحرم الإنسان من أعظم الثروات، وعوامل الخلاصة والرفاهية والتقدم، ويُطرد العلماء والفنانون وهم من أعظم ثروات المجتمع ـ خارج قلب المجتمع ويحصرون في المعامل وقاعات المحاضرات المغلقة في الجامعات. . ويدفعون إلى نوع من الابتعاد باحترام لصالح هذه القوى.

ومن هنا نرى أنه في فترات الديكتاتورية و«البلطجة» في التاريخ يروج الأنطواء على النفس والاعتزال والتقوى السلبية، والتزهد والعزلة الاجتماعية، حتى لا يرى المجتمع أفضل عناصره وأظهرها، وتهترىء كلها في زوايا الدور والأغوار والرهبانية التي لا حاجة إليها، حتى يتعامل من تسلطوا على الخلق مع العوام كالأنعام الذين خلوا من

أفضل أفكارهم وأظهر أرواحهم، ويقومون بالإغارة على المجتمع.

الفن والعلم مسؤولان في الإسلام:

لعل لفظ المسؤولية.. لفظ جديد.. لكن التركيز الموجود عند الأئمة ومن روح الإسلام على مسؤولية الفن والعلم والأدب بل والشعر أكثر مما هو مطروح في عالم اليوم[١]، إن التناقضات التي نحسها دون طرح لقضية المسؤولية، هي إحدى أكثر وألمع معايير تأكيد الإسلام وإصراره وتعصبه للمسؤولية في العلم والشعر والفن والفكر والبحث العلمي.. إذ أنه يعتبر أن الدور الممكن للفن والعلم هو أن يكون في خدمة المجتمع والإيمان.. وهو يعترض تماماً على الشكل الذي يخالف هذا الأمر وينفيه تماماً.

والشعر الجاهلي «فن من أجل الفن» و«شعر من أجل الشعر» وشعر إمرىء القيس وكل شعراء الجاهلية، والمعلقات السبع التي لا تزال تعتبر ضمن أجمل القصائد في الشعر العالمي ألفت على أساس معيار «الشعر من أجل الشعر»، لكن الإسلام والمسلمين رفضوه بحيث لم تبق له طاقة بعد على رفع رأسه وذكر القرآن صراحة ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[٢]. وبعد الإسلام على حد قول طه حسين: لم يترك الشعراء الجاهليون الشعر من أجل نظم الشعر

---

(١) لفظ المسؤولية وارد بشكل شديد الوضوح في الثقافة الإسلامية وهو يعطي نفس ما يعطيه المعنى المعاصر ويزيد أن الإنسان مسؤول أمام الله قبل مسؤوليته أمام البشر. «المترجم».

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٤٤.

نفسه، لكنهم في مواجهة منطق الجماهير المسلمة لم يستطيعوا أن يرفعوا رؤوسهم من طيالسهم المذهبية الأرستقراطية، لكن من يعرفون الآن بأنهم شعراء جاهليون لم يكونوا في الواقع شعراء جاهليين، كانوا آنذاك قد أصبحوا مسلمين ينشدون الشعر من أجل الشعر.. وكانت روح الإسلام ترفضهم.. وكان رسول الإسلام يقول: لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خيراً من أن يمتلىء شعراً».

الإسلام يدافع عن الشعر:

الدين الذي يهاجم بهذه الشدة الشعر والشعراء وبأسوأ التعابير.. يقوم من ناحية أخرى بالدفاع عن الشعر بشكل لا يصدق.. فحسان بن ثابت شاعر لا عمل له سوى نظم الشعر.. إلى حد أنه في موقعة الخندق بينما كان كل المجاهدين خارج المدينة بجوار الخندق لمواجهة العدو.. والنساء داخل القلعة كان «هو» مع النساء، وعندما ترى صفية بنت عبد المطلب أحد يهود بني قريظة يحاول تسلق الحصن للتجسس تطلب من حسان أن يرده.. فيقول لها: إنها إن أرادت شعراً فلها ما تريد لكن هذا الأمر لا يتأتى منه.. وعندما تقتله صفية بنفسها وبحربتها تصعد إلى الحصن وتقول لحسان: أنت رجل إنزل إذن واغنم ملابسه يقول: أما هذه فنعم!!

نفس حسان هذا يرى من تكريم الرسول ما لم يره شهيد أو مجاهد، بل ويعطيه جارية من جاريتين أرسلهما المقوقس كهدية للرسول ﷺ. يأخذ الرسول جارية وهي التي أولدها إبراهيم ويعطي الأخرى وهي «سيرين» لحسان بن ثابت.. كما أن المنزل

الصيفي الذي يهديه أحد أغنياء المدينة للرسول في أطراف المدينة وفي مكان كان الرسول يتمنى أن يكون له بيت فيه[١] يقوم الرسول بإهداء هذا البيت لحسان، وفي مرة أخرى يخلع على كعب بن زهير بردته الوحيدة.

ونفس هذا الرسول الذي يقول: إن «القيح» أفضل من الشعر يقول: «إن من الشعر لحكمة»، وذات مرة يعلق على قصيدة قالها حسان بن ثابت قائلاً: لقد نطق الروح القدس على لسانك[٢]، كل هذا المدح للفن من قبل دين يسب الشعر والشعراء بهذا الشكل، كل هذا المدح من أجل إنسان كان كل فنه هو الشعر والشعر فحسب!! وكتحليل للوصول إلى ما وراء هذا التهديد من ناحية وهذا التأييد من ناحية أخرى يمكن أن نقول: إن الرسول يقف فحسب في مواجهة الشعر غير المسؤول، والشعر الذي يوضع لخدمة الأهواء الشخصية والأحاسيس والعواطف الفردية، ولخدمة الأرستقراطية كما كان الشعر الجاهلي، ويجاهد لقطع دابره.. ثم كان ما حدث بعدها.. إذ يأتي الخلفاء ويبدأون أعمالهم بتكوين

(١) وفي العقيق وهو واد حسن الماء والهواء في أطراف المدينة ذات يوم كان الرسول ﷺ قد دعى هناك للغذاء وأعجبه الجو العمران والنضرة والخضرة، وعندما عاد إلى المدينة أوى إلى حجرته الطينية داخل المسجد.. وكانت كل حياته وأملاكه قال لعائشة: كم هو طيب أن يكون لنا منزل في العقيق. وطلبت منه عائشة أن يشتري هناك أرضاً ويبنيها. فقال لها: «لا يمكن فكل الأراضي اشتراها الناس.

(٢) أُهجهم يا حسَّان ومعك الروح القدس، حديث من خطاب الرسول ﷺ لحسان بن ثابت «المترجم».

جماعات التهريج والحجابة وتربية الشعراء إلى درجة أن إنساناً مثل السلطان محمود الغزنوي . . كان «يرعى» في بلاطه خمسة وأربعين ألف «رأس» من الشعراء .

والشعر الذي يتمتع بحماية الرسول والإسلام هو الشعر المسؤول والملتزم الذي يكون في خدمة أهداف الناس ومثلهم، وعاملاً من عوامل نجاة الجماهير ووعيها، ومن ثم ينبغي عليك كشاعر وكفنان أن تحدد موقفك من الناس وأن تعين حدود معتقدك، فإن الفنان الحر ليس إلا أسطورة، فإما ينبغي عليك أن ترتبط بالخلق وتكون على أهبة الاستعداد لخلاصهم . . أو ترتبط بأعداء الناس والفضيلة والحرية . . ولا طريق ثالث هناك!!

وانظر إلى المجهودات التي بذلت ولا تزال تبذل لكي ترفع المسؤولية عن كاهل الكاتب والفنان، ولو كانت الفرصة هنا تسمح بالتفصيل لرأينا كيف أن كل أنواع فرقتنا وشقائنا . . إن لم تكن قد حدثت بشكل مباشر بسبب أن قدراتنا الذهنية وأعمالنا العلمية والفنية لم توضع في خدمة الناس، فعلى الأقل لو كان لدى هؤلاء مسؤوليات إنسانية . . لكان مصيرنا مختلفاً .

وعندما ذهب الإسلام وبقي المسلمون فحسب، فقد مؤمنونا وشخصياتنا الدينية تلك الروح الموجودة في رؤية الإسلام واتجاهه، وفهموا الشعائر والأحكام الفردية فحسب، وهم في رضا تام؛ لأن السلطان محمود يمضي لقتال الهنود غير المسلمين، وأن السلطان خدابنده يتحول إلى شيعي، وأن جوهر شاد هانم ملكة

المغول تبني مسجد جوهر شاد[١]، وسوى ذلك لم يكونوا يفهمون شيئاً آخر. كل ما يفهمونه أن فلاناً الغاشم الظالم اختتن، وشرف بدخول دم الإسلام الحنيف خلال مراسم فخمة، وهو لمجرد الحفاظ على نظامه وحياته ووجهه الفرعوني، ويقوم بتعظيم شعائر الله ويسمي غزواته جهاداً، ويكون في فعله أسوأ من يزيد، ويقيم مجالس قراءة روضة الحسين[٢] وبهذا يشد قلوب المؤمنين والمؤمنات ويزدهر الإسلام.

نفس تلك السلطات هي التي كانت تربط الكتّاب والشعراء إلى المزاود وتقوم بتربيتها، وكان من نتيجته أحمال جمال من القصائد والغزليات والقطعات والمنظومات والرباعيات والترجيع بندات والمستزادات وغيرها، كثمرة للنبوغ الفني والقدرة الخلاقة للجمال الأدبي، الموجودة عند هذه الأمة وفي هذه الثقافة، وكلها لا تهم الناس ولا تنفعهم شروى نقير. أما إنها قصيدة في مدح الممدوح أو غزل في وصف المعشوق، بل إن هؤلاء الذين لملموا

---

(١) السلطان محمد خدابنده من المغول الايلخانيين الذين حكموا إيران بعد غزوة هولاكو. انظر فوائد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين، الدوحة ١٩١٧م. «المترجم». أما جوهر شاد فهي زوجة شاهرخ بن تيمور. أنفقت على بناء هذا المسجد الذي يعد تحفة معمارية في أصفهان. انظر تاريخ إيران: سابكس.. الترجمة الفارسية ج٢، ص٢٢٠ ط٢ سنة ١٣٦٣هـ. ش. «المترجم».

(٢) كان ملوك الصفوية والقاجارية أكثر الملوك احتفالاً بإقامة مظاهر التشيع وتجليل شعائره الدخيلة.. وكانوا في الوقت نفسه من أشد ملوك إيران على طول التاريخ سفكاً للدماء، وأكثرهم ولعل شاه سلطان حسين الصفوي ومحمد شاه قاجار يتميزان من بين الأسرتين بهاتين السمتين: التعطش للدماء، والتظاهر الديني ويبدو أنهما ظاهرتان متلازمتان. «المترجم».

أطراف ثيابهم من الدنيا، وخرجوا من البلاطات لم يتجهوا نحو الناس وآلام الناس وحاجيات الناس. . قبعوا في زوايا «العرفان» و«التقوى» و«الزهد» وانشغلوا بالحديث إلى قلوبهم وطفقوا طوال لياليهم يعدون النجوم أو يطيرون بجناح الخيال طيراناً إنسانياً من سطح الأرض، وتركوا الناس لدنياهم الحقيرة، وطفقوا يذهبون وحدهم بمعارضهم الروحانية إلى العام الهورقيليائي. . وهناك انشغلوا بالعمل!!

وأنا كإنسان مرتبط من الناحية الطبقية بالجماهير الريفية لهذا البلد ـ أو على الأقل هكذا كنت ـ كنت أرى أنه في نفس اللحظة التي كان فيها الفلاح يضحي بكل عمره فداءً لشهوات المالك. . وكان شرفه أُلعوبة في يد الخان الأقطاعي وابنه، ووجوده أداة ليد الخان وسوطه كان كتابنا العظام، وفنانونا الممتلئون إحساساً، وشعراؤنا الحساسون في جمعياتهم الأدبية شديدة الإقدام والتوقير في طهران. . وكم كانت اعمالهم عظيمة في مجال أحوال الناس وشؤونهم!!!! كل ما كان يهمهم جميعاً وجود القافية في مكانها الصحيح. . واستخراج أصوات «أعد. . أعد» من أضرابهم. . ومحققونا. . وعلماؤنا الأعلام ـ على حد قولهم ـ جاهدوا في نفس هذا العصر لمدة خمس عشرة سنة متصلة. . وقلبوا كل النصوص الإسلامية والأدبية في الألف سنة الأخيرة ظهراً لبطن وبطناً لظهر. . ووصلوا إلى هذه النتيجة المثيرة وهي: أن كلمة «زليخا»[1] لم ترد

---

(١) زليخا اسم امرأة العزيز التي عشقت يوسف عليه السلام في المأثور الإسلامي والفارسي. «المترجم».

قط في متن واحد من المتون القديمة!!

الآن.. انظروا إلى الرسائل المقدمة إلى كليات الآداب عندنا، لا يزال أسلوب البحث هو ما وضعه ادوارد براون[١] والقزويني[٢].. والروح والرؤية أقدم منهجاً.. تراث من سيبويه[٣] الذي كان يقول بعد عمر من البحث وعند احتضاره: «متُّ وفي قلبي شائبة أو شيء من حتى» أي أنني أموت ولا يزال هناك شك في نفسي حول كلمة حتى هل هي حرف أو اسم أو ماذا؟!

انظر إلى الألم العظيم عند الآداب والأبحاث غير المسؤولة!! هكذا كان القدماء الوقورون.. والمتدينون بشكل أو بآخر، والملتزمون بأصول أخلاقية وأصول إنسانية وغيرها، أما الموجات الجديدة من طوال الشعور في الكافتريات الجديدة فأنتم أنفسكم ترونهم. لم يكن الإنجاز الأساسي لنيما[٤] والثوار الأدبيين عندنا في الشعر هو أنهم حطموا الوزن وخلصوا الشعر من نبذ تكرار القافية.. بل كان تغيير روح الشعر واتجاه الشاعر وموقفه

---

(١) ادوارد براون (١٨٦٢ ـ ١٩٢٦م) مستشرق إنكليزي من جامعة كمبريدج. درس آداب الفرس وتاريخهم. له «تاريخ الآداب في فارس» (الناشر).

(٢) زكريا القزويني (١٢٠٨ ـ ١٢٨٣م) مؤلف وجغرافي من القضاة. ولد في قزوين. اشتهر بكتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» (الناشر).

(٣) أبو بِشر عمرو بن عثمان (ت نحو ٧٩٦) نحوي ولد في البيضاء قرب شيراز ونشأ في البصرة. إمام مذهب البصريين. (الناشر).

(٤) نيما يوشيج رأس المدرسة الحديثة في الشعر الفارسي. انظر: الشعر الفارسي الحديث دراسة ونماذج للمترجم. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣م. (المترجم).

وإحساساته، ونزلوا بهذه اللغة الإلهية من الأبراج العالية إلى الشارع، وكان قوياً وموفقاً بحيث أصبح من المظنون أنه لا يمكن إنشاء المدح في قالب شعر نيما.

وهناك كتّاب عاطفيون رقاق القلوب.. كان سقوط ورقة شجرة تعرضت لظلم رياح الخريف وتدميرها يملأ عيونهم بالدمع.. من أمثال محمد حجازي وعلي دشتى حدث أن مرا فجأة بقريتنا «مزينان» واستقبلنا الخبر بدهشة وفرح.. أن كتابنا وأدباؤنا العظام من سكان طهران.. تحركت أقدامهم من المحافل الأدبية الدافئة ونزلوا القرية.. ووجدوا لحظة فراغ من عيني «فتنة» ووجه «زيبا»[1] ويد الممدوح وقلبه.. وغمزة المعشوق وجاءوا إلينا نحن المحترقون في الصحراء الكبرى، وضحايا الكدح والعمل والجوع!!

لكن، لا هم أحسوا بجوعنا، ولا سمعوا أسواط السياط، ولا ذاقوا آلامنا، ولا هم رأوا حياتنا.. رأيت أنهم جاءوا فقط وفقط بحثاً عن سيدة تسمى «زيبا» لا أدري من أي مكان جاءت ووقعت في قريتنا.. القصة هي نفس القصة.. أسافل أعضاء زيبا والشيخ حسين المزيناني[2].

هذا هو الكاتب غير المسؤول، وهذه هي المأساة التي

(١) فتنة «رواية لعلي دشتي وزيبا» رواية لمحمد حجازي.. وبطل زيبا هو حسين المزيناني (من قرية مزينان مسقط رأس شريعتي، لتفصيلات انظر: مطالعات في الرواية الفارسية المعاصرة للمترجم، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٦.

(٢) اقرأوا زيبا حجازي.

يصنعها الفن من أجل الفن. . إذ لا يفصل الفن فحسب عن خدمة الإنسان بل ينصبه لخدمة ما هو مضاد للإنسان، والقيام بجره إلى الانحطاط ومجرد «تسليته»!! وهكذا. . فقد صار الفن اليوم عبارة عن أطعمة يعدها الفنانون من أجل أشخاص لا يعرفون بعد الشبع ماذا يأكلون ثانية، وكيف يمضون أوقاتهم؟! ويضع الكتاب الأطعمة الجنسية والبوليسية و«التسالي» الذهنية والخيالات الفكرية. . من أجل أشخاص مطمئنين من الناحية المادية، في شغل دائم لشغل أوقات فراغهم وملء خواء حياتهم.

أما الأبحاث الجامعية للعلماء فلا اتصال لها بالناس أو بمصير الناس. . ومن أجل العلم للعلم، يضعون أعظم الوسائل في أيدي أعداء الإنسان، ومن هنا فمن كل هذا التقدم في الفن والتصوير والموسيقى والعلم والشعر والأدب والتقنية والفيزياء لا نصيب لأي واحد من الجماهير. . بالرغم من أن كثيراً من الأشخاص قد تحسنت أوضاع حياتهم. . لكن كمستهلكين لا كمنتجين.

الدين في خدمة الدين:

«الفن للفن» و«العلم للعلم» و«الدين للدين». . فكما أن الفن للفن يبدو تعظيماً واحتراماً وتنزيهاً للفن، والعلم من أجل العلم تكريم للعلم. . ووضع العلم والفن في خدمة الإنسان يعد حطاً من شأنهما. . وبالتالي يصبح «الدين للدين» مبدأ وأصلاً من أصول الدين. . وإن استخدام الدين في خدمة كمال الإنسان ونضجه يعد

تحولاً للدين إلى «وسيلة وأداة» وحطاً من شأن الدين[1].

لكن في مثل هذا التكريم العامي أو الخادع للعوام، وفي ظل هذا الاحترام الكاذب، تجمد حقيقة الدين وحياته، وتعطل كما حدث لحقيقة الفن والعلم وحياتيهما.. ومن هنا نرى اليوم أن الدين والشعائر الدينية والمراسم الدينية والعبادات والسنن بل ونفقات إظهار العواطف الدينية في الإسلام والمسيحية أصبحت أكثر بكثير مما كانت عليه، قارنوا بين ما كان عليه مسجد الرسول وبين المساجد التي تعتبر كل منها تحفة من تحف الفن والذوق والنبوغ والذهب والمال.. هذا تكريم للمسجد لكنه في الحقيقة تفريغه من المحتوى.. والدين من أجل الدين.. والصلاة من أجل الصلاة، والصوم من أجل الصوم، وحب عليّ من أجل حب علي، والقرآن من أجل القرآن.. أي تكريم لعلي والقرآن والصوم والصلاة والإسلام والتشيع. لكن يعد أيضاً إخراجاً له من حيز الاستخدام.. أي وضع ما هو وسيلة للخلاص والنجاة (على الرف) أو في إطار ذهني والقيام بالأنحناء أمامه والتعظيم والتكريم والقيام والسجود.. دون أن يكون دواء لأي داء.. هذا هو الدين من أجل الدين!!

---

(١) تماماً كمسألة الدين والسياسة.. رؤية السياسة مما يحط بالدين والاشتغال بالسياسة مما يحط برجل الدين.. تقديس الدين لأبعاده عن قلب الجماهير.. والسخافة التي تتكرر عندما يعمل رجل الدين بالسياسة.. السياسة لا تليق.. لا يليق برجل الدين أن يسعى للحكم.. وكأن الحكم فحسب لمن تركوا الدين.. ولم يصلحوا الدنيا. «المترجم».

الدين يعني الطريق:

يعبر الدين وكل المصطلحات المتصلة به والتي تدل على الإحساس الديني في الثقافة الإسلامية. . خلاف ما يعبر عنه اللفظ المماثل في اللاتينية أي Religion . . إذ يعبر عن الطريق.

والمسالك هي الطرق المتعرجة الجبلية ـ كما أن الـ«سانتيه» هو الطريق المفضي من منطقة لمنطقة. . كطرق السفر. . والشريعة هي طريق الماء. . الطريق الذي يمر من شاطىء مرتفع لنهر، ينزل حتى سطح الماء حتى يمكن حمل الماء ووصول يد الظمآن المحتاج إليها، والذهاب في طلبها[١]. والصراط لغة ـ بمعناه الأصلي هو الطريق الذي يؤدي إلى المعبد. والمذهب من مادة «ذهب» بمعنى السير. . أي الطريق والأسلوب والسير في الطريق، ومن معاني الدين أيضاً الطريق. و«الأمة» أي المجتمع الإسلامي من مادة «أم» بمعنى القصد والطريق، والإمامة من نفس مادة «أمة» وهي بمعنى الإرشاد والقيادة، والعبادة أيضاً بمعنى تسوية الطريق وتعبيده «عبَّد الطريق»، والحج يعني الإتجاه إلى مكان ما وقصده، والطواف هو الحركة حول محور، والسعي هو الجري من نقطة إلى نقطة سعياً من أجل الوصول إلى هدف. . والسبيل هو بمعنى الطريق على الإطلاق.

نحن نرى إذن أن المصطلحات الرائجة التي تبين أكثر

---

(١) من صفات الرسول الشارع والأحكام والقوانين وما جاء به الرسول يسمى الشرع.

الأصول الإسلامية أساسية، وحتى المصطلحات التي تطلق على الدين نفسه من الثقافة الإسلامية الأولى، كلها بمعنى الطريق والحركة في الطريق، ويبين هذا فلسفة الدين وكل العقائد والشعائر التي يطرحها الدين. والطريق: يعني الوسيلة التي ينبغي عليك أن تتوسل بها لكي تصل إلى المقصد، لا أن تقف في الطريق وتقوم بأنواع من التعظيم والتكريم دون حقيقة ودون هدف، فإن هذا يشبه الاستفادة من الطريق لا من أجل الوصول إلى المقصود والهدف بل من أجل الطريق نفسه، ونقوم بتزيينه ووضع المصابيح فيه وزخرفته(!!) هذا يعني الطريق من أجل الطريق أي المشي لا من أجل الوصول إلى المقصود والهدف، بل من أجل مجرد «تمشية القدم».. بلا هدف.. وبلا سبب وبلا نتيجة.. ولو قضينا كل عمرنا في الطريق.. لكن واقفين.. أو مجرد تحريك القدم «مكانك سر» ولم نفكر في المشي أو الذهاب، فإننا لا نقطع مجرد خطوة واحدة في الطريق.. كما حدث بالفعل وهذا هو ما يعنيه كلام الإمام علي الجدير حقاً بالصدور عن أن أولئك الذين يعبدون دون علم ودون وعي مثل حمر تدور في طاحون يسيرون ولا يصلون إلى مكان ما، وهم من الصباح إلى المساء في حركة وفي طريق.. لكن في النهاية.. يظلون في نقطة البداية.. هذا هو معنى العبادة من أجل العبادة، والدين من أجل الدين، والطريق من أجل الطريق.

ليس الطريق من أجل الطريق بل من أجل الوصول إلى الهدف، والدين ليس من أجل الدين بل هو أيضاً طريق نحو الهدف.. لكن ما له قيمة اليوم هو الدين من أجل الدين.. وهذا

هو الذي يجعل الإيمان بالدين يسلب المسؤولية من المؤمن بهذا الدين.. ومن أي دين؟! من الإسلام الذي هو أساساً يختار أكثر التعبيرات وضوحاً وحسماً من أجل بيان مسؤولية الإنسان ذلك؛ لأنه عندما تصبح العقائد والشعائر والأحكام الدينية هدفاً في حد ذاتها.. فإن كل من أصبح له دين فقد وصل إلى الهدف.. ولم تعد هناك مسؤولية بعد على كاهله.. والصلاة من أجل الصلاة تعني أن كل من صلى فقد أدى واجبه. لكن القرآن يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1]، بمعنى أن الصلاة وسيلة للقضاء على القبح والسوء والنهي عنهما.. وإن لم تقم صلاة إنسان بهذا الدور، ولم تأت منها هذه النتائج.. فإن المصلي وغير المصلي سواء.. والسيارة التي لا توصلني إلى مكان ما تستوي مع عدم امتلاك سيارة.. فماذا يعني مصطلح «السيارة من أجل السيارة»؟!!

دين المسؤولية:

الإنسان في الإسلام مخلوق يحمل أمانة الله، هو حامل الأمانة التي عرضها الله على الأرض والسماوات والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان.. أي أنه قبل المسؤولية.. فالأمانة: هي المسؤولية.. إذن فليس الإنسان من أجل الإنسان، وليس الإنسان حراً غير مسؤول.. بل هو حر مسؤول.. لا مسير ولا حر!!

وفي القرآن، وفي عقائدنا يطرح مبدأ المسؤولية بوضوح تام ـ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

لكنهم قلبوا المعنى اليوم بشكل يعتبر حقيقة معجزة. . فعلى سبيل المثال: أن كون اليد والقدم والعين والأذن تشهد على الإنسان بما قام من أعمال تبين أن أعضاء الإنسان كلها عضواً عضواً مسؤولة أمام رسالته الإنسانية. . في حين يجري النقاش اليوم حول هذا السؤال: هل يمكن لعظام الإنسان بعد أن تحللت واهترأت وفنيت أنت تجيب؟! وهل تشهد اليد والقدم بكلمات وألفاظ وصوت أو لا تشهد؟ أو أنها سوف تبين كلامها بلسان الحال؟! اتجهت الأبحاث نحو بحث حل المشكلة التكنيكية للشهادة يوم القيامة!! يقول المؤمنون: نعم، اليد والقدم والقلب والعين والأذن تشهد بلسان فصيح وتتحدث، ويقول المفكرون: لا. . ليس صحيحاً من الناحية الفيزيولوجية، إذ أنه بعد الموت تتحول هذه الأعضاء إلى مادة معدنية تدخل في تكوين نباتات وحيوانات وبشر آخرين، وأساساً أثبت العلم اليوم أن اليد والقدم والأذن والعين لا تستطيع أن تتحدث. . وهكذا نرى النظريات واتجاهاتها. . إحداها تثبت، والأخرى تنفي، ولم تصل إلى قيمة أو إلى نتيجة؛ لأن الكلام هنا عن المسؤولية. . وقوة مسؤولية الفرد، وثقلها وحساسيتها. . بحيث أن الفرد يكون مسؤولاً عضواً عضواً. . وهذا الجدل العلمي الحاد جداً. . والأبحاث العلمية والشجار بين المتدين والعصري. نتيجة هي أن المعنى الأصلي للآية قد صار: لا شيء.

يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[1]

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

أي أن المسؤولية موضوعة على كواهل روح الإنسان. . وجسده جزءاً جزءاً، وبعداً بعداً، «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، ليست المسؤولية خاصة بالقائد، وليست خاصة برجل الدين المستنير. في هذه الجماعة كل فرد مسؤول عن قيادة الجميع وهذا يشبه تماماً كلمة سارتر[١] الشهيرة «أن أعظم نقطة بارزة ومتميزة في وجوديته وأساس أخلاقه ومعيار ادعائه بأن الوجودية إنسانية وفلسفة إيجابية وعينية. أن كل إنسان بحسب اختياره، وعندما يحب أن يتبعه الناس، ويقومون بنفس العمل الذي يقوم به، فإنه بكل اختيار يختاره يضع قانوناً كلياً عاماً. ومن هنا فإن مسؤولية كل فرد من البشر في حياته الاجتماعية، هي بمقدار التعهد بمصير كل البشر، ثقيلة ومرعبة»[٢].

والإسلام عند وصف العالم الذي لا يعلم بما علم يكرر شأنه في كثير من المفاهيم العظيمة، ويجعلها ورد لسانه دون أن يتحدث عن نوع العمل، وإذا تحدث فإن المقصود يكون «العمل بلا علم» أو «العمل من أجل العمل نفسه». وهو يقصد العالم الذي لا يحس بمسؤولية بالنسبة لمصيره ومصير الجماهير، ومسيرة المجتمع والروح والثقافة والإيمان، والعوامل التي تؤدي إلى ضياع الناس

(١) أنه يعتبر معيار الخير والشر في حسن نية الإنسان؛ لأنه لا يتحدث عن معيار خارجي، وهذا يعني أنكم تقومون باختيارين أو عملين في حالة واحدة. . عملٌ تقومون به وتحبونه، وعملٌ تقومون به أنتم وحدكم ولا يقوم به إنسان آخر. . وعمل تقومون به وتحبون أن يقوم معكم الجميع بنفس العمل. . وهنا في هذه الحالة كأنكم تقومون بعمل قاعدة عامة لكل البشرية. «المترجم».

(٢) «من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزرمن عمل بها إلى يوم القيامة». حديث نبوي. «المترجم».

وضلالهم وانحرافهم الذهني، بل يترك حتى ما نسميه نحن برقة التعبير الأدبي ويقول: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾[١]. ويقول: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ﴾[٢] فالعالم الديني غير المسؤول كالحمار.. والكلب!!

القرابة بين المداد والدم:

كل إنسان حاملٌ لأمانة الله ـ لأنه ابن آدم ـ ومسؤول، ليس مسؤولاً عن جماعته أو أسرته أو بني جلدته.. بل هو مسؤول أمام كل الوجود والإرادة الحاكمة على الوجود وكل الكائنات.

هذا هو نطاق مسؤولية الإنسان. لكن أعظم مسؤولية في الإسلام موضوعة على عاتق العلماء.. ومن هنا ففي تلك الحركة الناشئة المسماة بالإسلام في بلاد العرب، والتي كانت في حاجة إلى المجاهدين في صراعها مع عبدة الأوثان والأعداء والأرستقراطية المهاجمة، فإن قائد هذه الحركة ينادي في المجاهدين بقوله: لا تزال البشرية حتى الآن في عصر النبوغ والثقافة والعلم تفتقد مثل هذا التعبير الرائع الذي انبعث من صدر مجتمع أمي لا خط فيه ولا كتابة.. هذا النداء هو:

«مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء»[٣].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٣) انظر في هذه الأحاديث: إحياء علوم الدين للغزالي.. المجلد الأول. كتاب العلم. ص٦ وما بعدها من طبعة البابي الحلبي. «المترجم».

من هذا التعبير. . ألا يستنبط هذا المعنى السامي الواضح وهو: أن الدم والمداد كلاهما ذو مسؤولية متشابهة. . بل إن مسؤولية المداد أكثر حساسية وثقلاً من مسؤولية الدم!! ومن هنا فإن القرآن الذي نزل في مجتمع أمي، ولم يكن حتى في المدينة سوى كاتب واحد وكان يهودياً، وكان النبي الذي جاء به أمياً، ثم يقسم بالقلم والمداد والكتابة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1] لكن القسم هنا بالقلم المسؤول، وبالمداد الذي هو التوأم الإسمي والقريب الأعظم اللأصق للدم.

ومن هنا فإن العلم والعالم في لغة القرآن والإسلام. . لا أقول: إنه كما يقول العصريون كل علم على الإطلاق. . أو كل عالم متخصص في فرع من فروع العلم. . أو كما يقول كثير من القدماء. . إنه علم الدين والفقه، والعلم بالأحكام الدينية. . لكني أقول تماماً ما يقال اليوم في الثقافات والآداب الاجتماعية والإيديولوجيات الإنسانية والثورية والمسؤولية بالنسبة للمفكر.

وهناك حديث مروي عن الرسول ﷺ هو «علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل»[2]. في هذا الحديث يقول الرسول: إن العالم في نفس مستوى النبي، ويشبهه ويعتبر العلم مواصلة واستمراراً للنبوة، ومن ناحية القيمة يعتبر رسالة العلماء في

(١) سورة القلم، الآية: ١.

(٢) انظر في هذه الأحاديث: إحياء علوم الدين للغزالي. . المجلد الأول. كتاب العلم. ص٦ وما بعدها من طبعة البابي الحلبي. «المترجم».

مجتمعاتهم وتاريخهم وعصرهم أثقل من رسالة أنبياء عصر بني أسرائيل وأكثر قيمة.

هذا هو العلم المسؤول، مسؤولية دقيقة ومصاحبة للنبوة.. وهذه هي نفس النتيجة المستنبطة من حديث آخر يقول: «العلماء ورثة الأنبياء»[1] ترى أي شيء يرثونه من الأنبياء؟! الوعي والمسؤولية أمام العصر وبالنسبة لمصير الناس.. وقد طرحت هذه القضية الدقيقة في التشيع على صورة مبادىء ثلاثة، وبالرغم من أنها غير مطروحة في الظاهر، إلا أنها شديدة التميز في قلب التشيع، وعمله، وثقافته، والأصول العقائدية والعملية فيه.

الأدوار التاريخية للتشيع:

ينقسم التاريخ في الرؤية والتفسير الشيعي له إلى ثلاث دورات:

١ ـ الفترة الأولى.. التي كانت فيها قيادة الناس للخلاص والكمال والحرية، وبسط العدالة منوطة بالنبوة.

٢ ـ الفترة الثانية.. وهي نهاية النبوة، ونهاية فترة الخاتمية، وبداية الإمامة.. وفي هذه الفترة تكون قيادة الناس في يد نظام الإمامة.

٣ ـ الفترة الثالثة.. التي تبدأ بغيبة الإمام.. أي فترة الغيبة الكبرى تكون فيها قيادة الخلق وهدايتهم، ونشر الحكمة، وإقامة العدل والقسط أي ما كان على عاتق النبوة والإمامة.. كلها تناط بالعلم، لكن ليس

---

(١) انظر في هذه الأحاديث: إحياء علوم الدين للغزالي.. المجلد الأول. كتاب العلم. ص٦ وما بعدها من طبعة البابي الحلبي. «المترجم».

بمعنى معرفة مجموعة من المعارف لا يعرفها الآخرون. . لكن بمعنى الوعي الذي يشبه ما يمنحه الأنبياء من وعي.

الغيبة: على خلاف ما يقال لنا، وعلى خلاف ما نفهمه، فإن فترة الغيبة ليست فترة حط المسؤولية، والانتظار السلبي لظهور «المهدي» ولكنها فترة إزدياد المسؤولية الإنسانية ثقلاً. . وتحولها إلى مسؤولية مباشرة، وفي هذه الفترة يتعهد العالم برسالة ومسؤولية محددة ثقيلة ومباشرة. . أمام الله ومدرسته الفكرية وعلمه، وأمام الإمام والناس. . وهذه هي النيابة(١).

النيابة: النيابة أي المسؤولية التي يتعهد بها العلم حتى يكون استمراراً لطريق الإمام وحركة النبوة. . وفي هذه اللحظة التاريخية تكون مسؤولية العلم وواجبه إرشاد الخلق، وحكم الناس، وتعليم الجماهير، ومنحها الوعي، وتعريف الناس دائماً بمدرستهم وعصرهم ومصيرهم ومسؤولياتهم. . وليست الغيبة في هذه الفترة هي تعطيل المسؤوليات الاجتماعية. . بل على العكس مما «طبخوه» وما «يطبخونه» توضع كل مسؤولية النبوة والإمامة على كاهل العلم والعالم.

الاجتهاد: الاجتهاد هو البحث العلمي بحرية من قبل باحث مسؤول، وليس الباحث الذي يريد أن يكشف الحقائق من أجل الكتب والمختبرات والجامعات، بل والباحث الذي يقوم ببحثه من أجل الناس، ومصير الناس، والفهم الأفضل للعقائد، والعرض

(١) انظر رسالة الانتظار مذهب الاعتراض للمؤلف. «المترجم».

الجديد للحلول، والاستجابة لمطالب العصر، وطرح ضروريات الحياة الاجتماعية، وتنوير مجتمعه وهداية الناس على أساس المدرسة الفكرية!! والاجتهاد هو المسؤولية المتميزة والثقيلة للمذهب الشيعي والتي توضع على كاهل العالم المحقق حتى يمنح فهم المذهب وتفسيره في الأذهان والأفكار، والإدراك العلمي للعصر تطويراً بحسب تقدم العلم ووعي الناس، ويجعل تطبيق الإسلام ومدرسته ممكناً يجيب حاجة العصر وبميزان ييسر إمكان كشف وفهم أفضل لتلك الحقائق. وأهم من كل هذا أن الرسالة العظيمة للعالم أنه يجب أن يقدم أحكاماً وتفسيرات، وفهماً جديداً مناسباً للعصر، ومناسباً لحاجة العصروضروريات أهله وجيله، وعلى أساس أحكام المدرسة العظيمة وأصولها الميسرة له، وأن يقوم باستنباطها واستخراجها بحسب حاجة العصر الذي يعيش فيه، وحركته وضرورياته. كما يجب لكي يظل مذهبه حياً، وحتى لا يبقى المذهب متجمداً عاجزاً في إطار الظروف القديمة والماضية التي مضت إلى حال سبيلها.. ولا يتخلف عن عصره(١). ولا

(١) لكن للأسف كما يقول الدكتور شادمان أنه مع أن الحياة الاجتماعية والعرفية والأسس القانونية في المجتمع كانت في الماضي على أساس الفقه الإسلامي، كان الفقه في مراكزنا العلمية فرعاً من العلوم الدينية، وكانت توجد إلى جواره الفلسفة والآداب وعلم الكلام وعلم الحديث وعلم التفسير بل والطب وغيرها، لكن الآن وقد خرج النظام الاجتماعي والقانوني للمجتمع من أيدي الفقهاء وفقد الفقه ناحيته العملية، انصرفت كل الجهود العلمية في مراكزنا إلى الفقه في حين أنه بنفس القدر الذي تنحى به الفقه عن الحياة الاجتماعية، طرحت القضايا العقائدية والاجتماعية والعلمية للدين أكثر من ذي قبل.. أي تلك القضايا التي لا يستطيع الفقه أن يجيب عليها.. ومن هنا وبكل أسف فإن جهود العلماء والطلاب ضاعت هدراً وبقي الإسلام بلا دفاع.

يعني هذا أن يقعد الفقيه بدلاً من القيام بكشف الحوادث الجديدة للعصر ويجد إجابة إسلامية لها، حتى يظهر نظام البنوك وخلو الرِّجْل والتأمين.. ويتحدث هو عن أحكامها الشرعية.. بل ينبغي أن يتطور وتتفتح روح الفقه الإسلامي ورؤيته وتفسيره للعقائد واستنباط الأحكام.. ودور الفقه الإسلامي على يد مجتهد مسؤول.. أي باحث حر ومسؤول بحسب تغير الاحتياجات والضروريات وتطويرها.

ومن هنا.. مرة أخرى.. يطرح الاجتهاد نفس مسؤولية العالم في الهداية الفكرية والعلمية للمجتمع، وطوال تطور الزمان وتغير القيم والاحتياجات.. بهذه الخصوصية والثقل والصراحة.

طرح مشكلات ليست مشكلات:

أحياناً ترى أن شخصاً من (إيلام) مثلاً قد أرسل خطاباً يطرح فيه مشكلة.. وعند قراءته يرتج عليك وتسأل نفسك.. هل يا ترى حل كل مشكلاته بحيث وصل إلى هذه المشكلة التي أصبحت الأولى والأخيرة بالنسبة له؟! لقد طرح مشكلته في شكل سؤال هو: لقد كان أبناء آدم وحواء إخوة وأخوات فكيف تزوجوا من بعضهم البعض؟!! والاجابات أكثر جدارة بالاستماع من القضية نفسها.. يقول أحدهم: كانت حواء تلد في كل مرة توأماً ولداً وبنتاً، فكانت بنت البطن الأولى تتزوج من ولد البطن الثانية، وبنت البطن الثانية تتزوج من ولد البطن الأولى.. (انظر إلى الذكاء.. إنه بعد كل هذه المشقة.. واكتشاف حل لجعل زواجهم شرعياً..

بقيت المشكلة الشرعية على حالها) ويحكم آخر بعبقرية. . أنه أرسلت «جنية» لقابيل وحورية لهابيل. حتى تتضح أدوار أولاد آدم وواجباتهم! ومن هنا يبدو ظهرت النظرية العلمية القائلة: إن النساء لسن من جنس الرجال. . والآن. . ترى هل هذا الزواج قد توقف والجلسة منعقدة. . بحيث ظهرت الحاجة إلى إثبات الحلال وإيجاد ذريعة وقلنسوة شرعية؟! شيء هم أدرى به منا.

أو مشكلة من قبيل العلاقة لصفات الله مع ذاته. . ولا يوجد أحد يقول له: وما دخلك أنت؟! وهل يستطيع مخك وهو في حجم مخ الفأر أن يحل مثل هذه القضية!! وهناك الجدل الذي عمر ألف عام حول الجبر والاختيار. . كانوا هم أنفسهم يسلمون الروح تحت سياط بني أمية وبني العباس وورثتهم، ولا يفهمون أنهم غارقون في جبر الدنس والشقاء والاختناق. . لكنهم يسعون لإثبات الاختيار. . ليس في الأرض والحياة فحسب بل وفي الجو والسماء والغيب وقبل الخليقة.

لقد عجزنا عن حل مشكلة المرور والنقل العام في طهران، ثم نريد أن نحل الجمع بين الحدوث والقدم في الذات الإلهية، هذا إصابة للإذهان بالانحراف، وخلق للمشكلات «إياها» حتى لا نفهم مشكلاتنا الحقيقية ولا نعرف حلولاً لها. كنت وعدد من الأصدقاء ذاهبين ـ أثناء فريضة الحج ـ إلى أحد العلماء، وقبل أن أتشرف بمحضره، تنبأت لأصدقائي بالقضايا التي سوف تطرح كقضايا عالمية، ومشكلات اجتماعية، وفي ذلك الموضع. . وسوف يدور الاجتهاد والسعي من أجلها.

ومن بين ست مسائل تنبأت بها طرحت أربع ولم تطرح مسألتان لسببين: أحدهما: أن رفاقي طرحوا مسائل أخرى، والسبب الثاني: أنه لم يكن هناك وقت، ولم تكن واحدة من تلك المشكلات العلمية والاجتماعية للإسلام، ودار حولها الجدل والضجيج، والسعي والحساسية الجماعية لإيجاد حل فوري لها، قضايا من قبيل الصهيونية والاستعمار، أما التخلف وفقر الدول الإسلامية، وتمزيق أمة المسلمين إرباً، والتفرقة والاستغلال، وغزو الثقافة الغربية، ومسخ الثقافة الإسلامية، وغربة الجيل الجديد المتغرب عن الإسلام، ورفض التاريخ ومسخه والانحطاط الفكري للمسلمين، والمشكلات الطائفية.. لم تطرح واحدة منها.. كانت المشكلة: في القطب الشمالي أو الجنوبي حيث يدوم النهار ستة شهور، والليل ستة شهور، إذا استطاع البشر أن يعيشوا فيها أو يمروا بها.. ولو كان هناك مسلم بالمصادفة.. أو أسلم أحد السكان هناك.. كيف يصوم ويصلي؟! وفي النهاية وبعد جدل علمي، وإبداء آراء واقتراحات وفتاوى مختلفة، قال العالم المذكور وهو رجل عظيم ومستنير: فتواي أن المسلم الساكن في القطب الشمالي أو الجنوبي تسقط عنه أحكام الصلاة والصوم؛ لأن الصلاة بوقتها عند الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وفي اليوم بالليلة.. وهناك لا يوم بليلة.. ولا صبح أو ظهر أو عصر أو مغرب أو عشاء، والصوم أيضاً هو في شهر رمضان.. وليس هناك شهراً ليكون شهر رمضان!!

الحوادث الواقعة: من الرؤى المسبقة المتقدمة للفقه الشيعي

هو أن على العلماء أن يبحثوا «الحوادث المستحدثة» التي تحدث في كل عصر، ولم ترد بالطبع أحكام بشأنها في القوانين الفقهية السابقة، وعلى العلماء المحققين المجتهدين أن يطرحوها، وعلى أساس المعايير العلمية والاجتهادية، والمعرفة العلمية والعملية التي لديهم عن الإسلام، عليهم أن يقدموا الحلول لها، والإجابات عليها.. وهذا المبدأ يدل كيف يتنبأ الإسلام بقضية العصر، والحركة والتغيير، والتطور والتجديد خلال العصور التاريخية، واعتبر الواعين والعلماء بالإسلام مسؤولين بالنسبة لها.. والحوادث المستحدثة بشكل عام هي كل الأحداث الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإنسانية قضايا من قبيل: الاستعمار القديم والجديد، الآلة، غربة الإنسان المعاصر، البيروقراطية، التكنوقراطية، الفاشية، الديموقراطية، الدستور، السينما، التلفزيون، الاشتراكية، الرأسمالية، الصهيونية، قضية فلسطين، القومية في المجتمع الإسلامي، حركة الهيبي، تمرد الجيل الشاب، التخلف، العلاقة بين الشرق والغرب، تغريب التكنولوجيا والآلية، الغزو الثقافي، محو الثقافة عند المفكرين، البورجوازية الوسيطة، المادية، أزمة الدين، تزلزل الأسس الأخلاقية والتفسخ التقليدي، الانقطاع التاريخي، الحضارة والعصرية، حرية المرأة، مشكلة الجنس، تبرئة اليهود على يد البابا من الإتهام بقتل المسيح بعد ألف عام! الجوع، الاستغلال الطبقي الجديد، تغير العلاقات الطبقية، الثورة الاقتصادية، الآداب والفنون الجديدة، الإيديولوجيات المعاصرة القوية التي تولد الإيمان...

كل هذه حوادث وقضايا مستحدثة يتصل بها المجتمع الإسلامي بأبعاد مختلفة، أو يصطدم بها، وعلى العالم الإسلامي الواعي المسؤول أن يطرح هذه القضايا برؤية إسلامية، وعلى أساس من الأصول العلمية لهذه المدرسة، ومن أجل مكافحتها يشير بالحل عن طريق الاختيار والاقتباس أو الرفض أو التأييد، وذلك بعد تحليلها ومعرفتها، ويدلي بدلوه، ويعلم الناس تعليماً فكرياً، ويلتزم بالقيادة الفكرية والاجتماعية للناس ويتعهد بها.

لكنك ترى أن رسائلنا الفقهية، وهي النشرة الوحيدة التي توضع في متناول أيدي الناس من مراكزنا العلمية، وتعد ثمرة السعي والاجتهاد ولسنوات طويلة من أفضل العبقريات العلمية والتحقيقية لمذهبنا، هي هي نفس كتاب «جامع عباسي» للشيخ بهاء الدين العاملي، وهي تذكار من عصر الشاه عباس.. والآن لخصت بلا زيادة أو نقصان، كررت نفس تلك القضايا للمرة المائة بعد عشرة أجيال، وكل ما تغير هو نص الفتوى بقليل من التقديم والتأخير.

وأخيراً رأيت رسالة أو رسالتين تهتم إلى حد ما بالقضايا الجديدة لهذا العصر وهذا في حد ذاته يبعث على الأمل، ثم إن الحوادث المستحدثة هنا فهمت على إنها عن قضايا من قبيل: البنوك، وخلو الرجل، والتأمين، بُذلت جهود لتفسيرها تفسيراً فقهياً. وهذا يدل على أننا عندما نريد أن نخرج من الحصار الثابت للتقاليد القديمة، ونطرح قضايا العصر، ونجعل الإسلام تكئة للعصر، نسقط أيضاً ضحايا لقصر النظر، وتكون مهمتنا أن نبقى

منتظرين، حتى يتم العصر عمله كما يهوى أو كما يهوون، ثم نأتي نحن ونفسره بشكل ما من داخل كتب الفقه. أن نبقى دائماً تابعين للعصر ومفسرين للحوادث والأحداث ولسنا صناعها أو موجهيها!! فالعالم الإسلامي وارث الرسل.. والعالم الشيعي وارث الأئمة ينبغي أن يبقى هكذا!!

مسؤولية أن تكون شيعياً: أن يكون المرء شيعياً فهذا يضع على كاهله مسؤولية، أخص من مسؤولية كونه إنساناً أو مفكراً أو مسلماً.. أرض التشيع تنبت المسؤولية.. لكني أقصد بالتشيع؛ التشيع العلوي لا التشيع الصفوي الذي صار عاملاً لحط المسؤولية، ورفض كل الأمور والنواهي التي وجهت للإنسان. إن التشيع الصفوي هو مذهب إيجاد الحلول من أجل الهروب من المسؤوليات.. مذهب تجليد القرآن وتذهيبه وتعظيمه لا الدراسة في القرآن وتفسيره، وتقديس القرآن لا من أجل فتح القرآن وقراءته، والتوسل التام بكتب الأدعية من أجل إغلاق القرآن لأن فتح القرآن صعب.. جالب للمسؤولية.. هو كتاب يحتوي على الحساب الدقيق فهو يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1] والقيامة هي ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[2] هذا فحسب، والانفاق هو التخلي عن كل شيء، هو إنفاق الروح والمال والحياة والزوجة والأولاد؛ لأن كل هذه الأشياء «فتنة» في طريق العقيدة وفي سبيل الناس.. ينبغي أن

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

تعتبر الدنيا «حقيرة» وتجعل يومك وليلك وقفاً لا على الكسل وانعدام المسؤولية والزهد والرياضة والعبادة والاعتكاف. . بل في قلب الجهاد والاجتهاد والناس والعقيدة والعمل!!

كل هذه المسؤولية!! كل هذا الثقل!! إنه يأخذ بالشدة كثيراً!! لكن المتشيع الصفوي ليس قلقاً، فهناك بالنسبة له حلول سهلة وبسيطة. . ليفتح كتاب الدعاء. . يقول لك: يا فلان هناك أربع كلمات. . إذا وقفت على الدرجة الرابعة من الصفا وقلتها تصبح غنياً. . هذا هو مال الدنيا. . وإذا كتبت نفس الدعاء. . أو اتجهت إلى القبلة وتلوته أو كتبته بماء الرمان على طبق لم يوضع فيه ماء من قبل وشربته. . فسوف تغفر كل ذنوبك ولو زادت على نجوم السماء ورمال الصحراء وقطرات المطر. . طاهراً عدت كيوم ولدتك أمك. . هذا فيما يتصل بالآخرة أيضاً. . إذن فالمؤمن الفطن هو الذي يتجه هذا الاتجاه، فهو أكثر راحة وأقل نفقات وأكثر دخلاً. . إنه لا يفتح دفتي القرآن. . فقد وجد الحل المناسب له في كتاب الدعاء.

وعليّ ماثل أمامنا. . إذا كنا نعرفه ـ هو الذي يضحي بكل مصالحه ومصيره ومصير أسرته وشيعيته من أجل «الحق» و«الناس» ولا يترك ميدان الجهاد والنضال خالياً لحظة واحدة، ومع كل هذا فهو أمام المسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقه قلق وخائف بحيث ينقل قلقه وخوفه إلى رفاقه ومعارفه ـ هذا يضع المسؤولية على كواهلنا!!

والرسول ماثل أمامنا. . يقول لابنته العزيزة الغالية فاطمة:

«يا فاطمة اعملي.. فلن أغني عنك من الله شيئاً..» إن معرفته تجعلنا مفعمين بالمسؤولية.

إذن فبدلاً من معرفة محمد وعلي وقراءة القرآن وفهمه وقبول المسؤولية، فلنبحث عن حل ونجده.. وبدلاً من معرفة رسول الإسلام والإنصات إلى كلامه.. وبدلاً من معرفة علي وحياته، وقراءة نهج البلاغة، عليك بحبهم ودعك من معرفتهم!! لأن حب علي غير المعروف لا يجلب المسؤولية، ولنعبد علياً المجهول كما نعبد الصنم دون أن تكون بيننا وبينه أدنى صلة.. وبدون المعرفة.. عليّ مثل الآخرين، لا توجد بينه وبين محبيه دون أن يعرفوه أي نوع من الإجبار أو الأمر والنهي والمسؤولية.. هيا.. اقتل نفسك كما شئت، اضرب رأسك، وافقد الوعي، وابك كما شئت.. وزاول العشق والمحبة بلا أدنى معرفة.. اجعل من علي ملاكاً، واجعل منه إلهاً.. فلا يمكن أن يكون له أقل دور في حياتك.. أو يضع على كاهلك ما يجب. لكن لا تعرفه.. فإن معرفته تجلب المسؤولية!!

وهكذا تكون معرفة علي جرماً.. ومن هنا أننا اليوم وبعد قرون ينبغي علينا أن نعرف علي على لسان «سليمان الكتاني» و«جورج جرداق» الأبيين المسيحيين، ونرى «نهج البلاغة» بتحقيق الشيخ محمد عبده المفتي الأعظم، وإمام أهل السنة وتحشيته وطباعته، فمحبو علي لا حاجة لهم بمعرفة علي، أو نهج البلاغة وفهمه.. وهم يخشون مواجهتهما، ومن هنا نرى محب علي ـ الذي هو الآن مترجم نهج البلاغة وشارحه يكتب في نهاية الكتاب:

هذا الكتاب يقرأه المظلومون لكي يعلموا كم هو كثير أجر الصبر والتحمل!!

ولو كان الأمر هكذا فإن مكاننا في أعلى عليين!!

بدأ الإسلام بـ«لا» وبدأ التشيع أيضاً بـ«لا»: في التشيع مبدأ واحد، وكل مبادئه الأخرى تتشعب من هذا المبدأ.. في رأيي أن تاريخ التشيع وظهور التشيع في الإسلام يبدأ من «لا» هذه!! وإن لم تكن كل أصول التشيع وفروعه مبنية على هذا المبدأ لكان واهي الأساس وبلا معنى ولا هدف.. هذا هو أصل الأصول.. لا.

أنا لا أريد أن أحلل الموضوع في استنباط مبدأ واحد لكل التاريخ:

في اللجنة التي شكلها عمر، يمد عبد الرحمن بن عوف رئيس اللجنة المكلفة باختيار الخليفة من بعد عمر يده إلى علي ويقول: أبايعك خليفة لرسول الله على أساس كتاب الله، وسنة نبيه، وسيرة الشيخين.. ويقول علي: لا.. دون لحظة واحدة من التردد ولهذه الـ«لا» نتيجة غالية يعرفها عليّ، ويجب أن يدفعها عليّ: إعدام عليّ نفسه هذه هي النتيجة الأولى. إعدام كل أبناء عليّ على مدى التاريخ هذه هي القيمة الثانية.. وحتى حرمان المجتمع الإسلامي طوال عصر كامل من حكم عليّ.. هذه هي القيمة الثالثة.. كل هذه الخسارة من أجل «لا» واحدة.. «لا» غالية إلى هذا الحد.. لماذا؟! إن كان لديه الحق في التضحية بنفسه وبحكومته.. فلماذا التضحية بأبنائه؟! ولماذا حرمان الناس

والمجتمع في زمانه من حكومة عليّ. . وابتلائها بحكومة خلفاء الجور وزعامتهم!! أكان عليّ ـ يرى هدفه ورسالة إمامته العظيمة ـ في أنه لا يريد الاستحواذ على الحكومة، ولا هو يفكر في خلاص نفس ذلك المجتمع المحدود بزمانه. . ولا هو يريد أن يمنح أبناءه حكم المجتمع بأي ثمن؟! لا، بالرغم من أنه كان يريد هذا كله لكن كجزء من كل. . إنه يريد بـ«لا» هذه أن يعلم كل الناس وفي كل العصور أن:

كل من يفكر في الحق. . ويسير في طريقي. . كلما واجه الباطل في أي ظرف من الظروف. . ومهما كانت المصلحة عليه أن يقول: لا.

من أجل هذا المبدأ كانت تضحيته بنفسه، وحكومة أبنائه ومجتمع عصره تساوي بقاء هذا المبدأ في كل العصور حتى يصبح ثابتاً بين كل المفكرين ألا يدوسوا الحقيقة من أجل المصلحة. . ولا يقول للباطل: «نعم» من أجل المصلحة!

وبدأ التشيع في الإسلام بـ«لا» هذه كما بدأ الإسلام في التاريخ بهذه الـ«لا»[1] وتشيع المصلحة هو التشيع الصفوي. . في مقابل التشيع العلوي الذي هو «تشيع الحقيقة»!!

المصلحة. . الحقيقة: دائماً المصلحة. . كانت المصلحة هي النقاب الكاذب للجمال حتى يدفنه أعداء الحقيقة داخلها. .

---

(١) إلى ثلاث سنوات من بداية البعثة كان الرسول يكرر هذا الشعار فحسب: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

ودائماً ما كانت المصلحة هي السيف الشرعي حتى تذبح الحقيقة ووجهها إلى القبلة.. كانت المصلحة دائماً هي عملية «مونتاج» الدين والدنيا!!

«... إن ما تقوله حقيقة.. وأنت صادق.. حللت جيداً، ونظرتك هي نظرة الإسلام بالتمام.. لكن.. ليست من المصلحة في شيء» منطق من هذا؟! هذا هو الذي يفكر في المصلحة ومنطقه، هو عدو علي ومخالفه، وبنفس هذه الأداة يصبح عليّ جليس منزله. لقد ارتكب خالد بن الوليد جريمة، قتل مالك بن النويرة.. ودخل بامرأته.. إذن.. لا بد وأن يقام عليه الحد.. لكن ليس من المصلحة!! عبد الرحمن بن عوف.. المالي الأرستقراطي المرفه.. ينبغي أن ينحى جانباً لكن.. ليس من المصلحة، «لو أن علياً أخذ بزمامها ـ أي الخلافة ـ لحملها على الجادة»[(١)] هو أعلم الجميع، وأتقى الجميع، وأكثر الجميع خدمة للإسلام.. وأكثر الجميع فهماً للقرآن.. نعم، لكن له أعداء كثيرين، إن الأشراف حديثي العهد بالإسلام لهم ثارات على سيفه أثناء حروب عصر الرسالة.. ليست خلافته هي المصلحة!!

بنو أمية.. طوال فترة حكمهم.. أجرموا وحطموا الإسلام من الداخل، لكنهم أقوياء، ينبغي أن يوضعوا في المناصب وليست القسوة معهم من مصلحة الإسلام!!

---

(١) قول عمر لعلي: «أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء» «المترجم».

ولا زلنا نرى أصحاب مقولة: «ليس من المصلحة» كسدّ في مواجهة كل الحرات والجهود.

يقال: كتاب كذا مليء بالروايات المنحولة.. إنه يخرب الأفكار، إن ضرره أكثر من ضرر أي كتاب معاد أو معترض «على التشيع» بالنسبة لعقائد الناس في هذا العصر.. نسألكم أن تتفضلوا بقول هذا حتى يعرف الناس ولا ينحرفوا بقراءته.. ولا يقرأه الشباب حتى لا يتشاءموا من الإسلام.. نعم!! لكن.. حسناً: ليس هذا من المصلحة!!

يقال: الدق على الصدور، والضرب بالنصال، والسير في مواكب التعزية بالجريدة والتي هي صليب، والنعوش التي تمثل شهداء آل البيت كلها أمور لا تتناسب مع الإسلام.. إنها تعري الرجال أمام الأنظار، وإيذاء البدن ليس من الجائز شرعاً.. نقول: أعلن هذا إذن لئلا يفعلوا، لكيلا يراها أعداء الإسلام والتشيع.. صحح هذه الأمور بنفسك حتى لا يقوم الآخرون بعملها بشكل آخر.. فيتفضل بالقول: نعم، لكن ليس من المصلحة!! ولا يمكنه أن يقاوم فيعترف قائلاً: «هذا النوع من الوعظ والدعوة لم يعد مؤثراً بالنسبة لهذا العصر.. وفي مواجهة هجوم الدعايات اللادينية، والمضادة للدين، والمجهزة بأحدث وسائل الإعلام، والتعليم والدعاية، والأساليب الفنية والتكنيكية والعلمية الحديثة.. لن يستطيع أن يدافع عن الإسلام دفاعاً مؤثراً.. ينبغي أن توضع السينما والتلفزيون والمسرح والإذاعة في خدمة الخطاب الجديد للدين...».

وتسر من كل هذه الرؤية الواضحة والفهم والإحساس بالعصر وحاجات العصر، والقدرة على النقد والتحليل الاجتماعي. . وتقترح قائلاً: لا مانع، نحن مستعدون للقيام بكل ما يمكن أن نفعله في هذا السبيل. فيقول على الفور: نعم ولكن. . «لسه بدري». . ليس هذا فعلاً من المصلحة. . ليس من المصلحة!! ليس من المصلحة. . . أجل: ليس هذا بالحقيقة لكنه من المصلحة. . هذا حقيقة لكنه ليس من المصلحة. . هذا هو شعار تشيع المصلحة!!

إن تشيع المصلحة يقضي على تشيع الحقيقة، كما صار «إسلام الحقيقة» فداءً «لإسلام المصلحة» بحيث كانت بدايات الصراع بين المصلحة والحقيقة في السقيفة. . وانتصرت المصلحة. . ومنذ ذلك الوقت والظاهرة مستمرة. . وكخطين يبدآن من نقطة واحدة وبزاوية ذات درجة واحدة. . يبتعد كل منهما عن الآخر، وكلما مر وقت تزداد المسافة بين الظلم والعدل، والإمامة والاستبداد، والجمود والاجتهاد، والذلة والعزة. . أي الماضي والحاضر.

ومسؤولية الجميع واضحة اليوم. . تتحدث مع كل عالم وتاجر ومفكر وإنسان عادي. . يعرف الحقائق والمسؤوليات. . لكنه عند العمل لا يعلم. . يعلم المصلحة. . يريد أن يحيا من خلالها ويملك الرفاهية والمرتب والسوق، يكون له دينه الخاص. . ويتخذ من علي والحسين وآل البيت قوة للقلب وزينة للدنيا وسلوى للآخرة. . دون ضرر أو نفقات. . احتياطي!! ومن

هنا فمن أجل الهرب من كل مسؤوليات كون المرء شيعياً ـ أي معتنقاً لمذهب المسؤولية ـ صنعوا حلولاً، ولا يزالون يقومون بصنعها. . وذلك حتى لا يُزْعج نومهم!!

لقد كنت طوال حياتي شاهداً على التضحية بالحقائق، ووضعها تحت الأقدام على أيدي بشر من عباد المصلحة. . ومن ثم فقد تكونت لدى عقدة من «المصلحة» وآمنت بأنه «لا يوجد شيء قط فيه المصلحة سوى الحقيقة». . إذا كنت من شيعة عليّ فإن التشيع يولد المسؤولية ـ وهذا على خلاف «المحب» تلك الكلمة التي اصطنعوها حديثاً ـ وهو مجرد العاطفة دون المسؤولية. . في الإسلام والتشيع يكون الحديث عن «المعرفة» «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»، والشيعي يعني التابع الذي يحس في نفسه بالحركة. . واتباع أحد (التشيع لأحد) ويكون مسؤولاً. . لدينا نفس مسؤولية ذلك الذي نقتدي به، وقول: «لا» في مواجهة كل مصلحة. . من أجل الحقيقة.

واليوم: مسؤولية العالم الشيعي، وأيضاً مسؤولية المفكر والمثقف والمتكلم والعصري والرجل العادي عندنا واضحة، فالتاجر الذي يتاجر بالأسلوب القديم، ويتاجر بالصوف أو الحرير أو الغلة يدرك أن الزمان قد تغير، وأن تجارته ليست تجارة اليوم، فيغير على الفور ميدان استثماره ويخرج من ذلك السوق ويقوم بالوكالة لتجارة أجنبية. . ذلك لأنه يعلم أن تلك التجارة الكلاسيكية قد ماتت، لكن نفس ذلك الرجل الذي يملك هذا الوعي المستنير

بعصره عندما يصل إلى المسائل الدينية، يصبح عابداً للقديم، وميّالاً إلى التقليد، فلا يخاطر ولا يغير أدنى تغيير في أمره.. فقط بمجرد أن يدفع النقود، فقد أنهى كل شيء وصفاه.. أقول لمثل هذا الإنسان المؤمن المسؤول: كيف أنك في وكالتك التجارية أحسست بالتغيير الاقتصادي وتغير الدنيا والبنية التحتية للعصر، وتغير الاستهلاك، والروابط التجارية والاقتصادية في العالم لكنك لم تحس أنك تواجه ابتعاد المجتمع وتغربه والعصر والمذهب الذي تؤمن به، والإيمان الذي تعلقت به، وإزاء الشخصيات التي تعتبرها نبياً لك وأئمة لك؟! وترى أنهم هجروا الجيل الجديد وثقافة الشباب وروحهم. ألست مسؤولاً؟! وألا تدري أنه من أجل معرفتهم اليوم ـ أي رسولك وأئمتك ـ يعتبر كتاب واحد أهم من بناء تكية؟! إذن لماذا لا تفتأ تبني التكايا؟! أعرف كتباً لو ترجمت إلى الفارسية لمنحت جيلنا الجديد إيماناً واعتقاداً جديدين لكنها لم تترجم، وبقيت كأنها لم تكتب؛ لأنه لا توجد أموال تدفع للمترجم والناشر من أجل ترجمة هذه الأعمال ونشرها. هذا بينما يقوم المؤمنون ـ دون الانتباه إلى هذه المسؤولية العظيمة ـ بأداء دينهم لدينهم ومجتمعاتهم وأبناء جنسهم بنفس الطريقة السائدة منذ قرون، وهم غافلون أن مشكلة القرن والقرون السابقة لم تكن عدم ملكية خزان ماء.. وأن المشكلة اليوم شيء آخر. اليوم بمد أنابيب المياه إلى المدينة، فإن صناعة خزانات المياه ووقفها على المسلمين لم يعد بعد عملاً خيرياً. بل إنه اختلال عقلي أو أخلاقي!!

مسؤولية المفكر أن ينزل من المقاهي الأرستقراطية المقامة في شمال المدينة لزوم المفكرين والتي يقدم فيها فنجان القهوة بخمسة تومانات ويتحدث عن الدول المتخلفة، ينزل ويدرك مم تعاني الجماهير، وما هي لغتها، وبم تدين، وكيف تقضي أوقاتها، وأية مسؤوليات كاذبة أو صادقة تحس بها.. ويفهم كم يوجد في قلب هذا المجتمع من ثروات ثقافية مثل ثروات النفط والماس والنحاس، على المفكر أن يستخرجها.. ويصفيها، ويمنح المجتمع الحركة والتكامل واليقظة والخلاقية والبناء!!

ومسؤولية العالم الشيعي أن يحدث ثورة شيعية في نوع التفسير والفهم الديني في عصرنا، مسؤوليته أن يكون جريئاً في وجه المصالح، في وجه العوام، وما يقبله العوام، وأن يضرب عرض الحائط بذوق العوام وتذوقهم واختيارهم، وأن يقوم بفرض قيادة الاجتهاد والعلم، لا أن يسلم أمامهم، أي أمام العوام المتدينين.. ويخاف من القيام بأي عمل جديد، وبدلاً من التقوقع في البحوث، والتعمق في فروع الفقه والمباحث الكلامية والفلسفية والقضايا الذهنية.. وهي ذات قيمة ومهمة وفخر للإسلام والمسلمين. لكن هناك حاجة عاجلة وفورية وهي أصل القضية، وبدلاً من تضييع كل هذه السنوات الغالية من أعمارهم، وفرص العصر والناس أدراج الرياح، وإبطال كل هذه العبقريات وصرفها ثلاثين أو أربعين أو خمسين أو ستين في هذه العلوم.. عليه أن يقوم بنقل الإيمان إلى الناس وإيقاظ العموم، عليه أن يطرح القرآن

في الساحة، وأن يعلم نهج البلاغة للناس، وأن يجعل هذا الجيل عارفاً بحياة الرسول وأفكاره، وحياة عليّ وآل الرسول والصحابة العظام من أمثال أبي ذر وعمار، والتاريخ المليء بالدم والجهاد في التشيع، والتعهد بالرسالة العظيمة لخلافة الإمام في قيادة الناس وهدايتهم.

نعم: الرسالة.. وليس تأليف «الرسالة» فحسب، وإذا أردت أن أعدد مسؤولية الشيعي، انطلاقاً من مدرسة عليّ، وأكثر العقائد أساسية في التشيع وسيرته التاريخية ينبغي أن أقول: إن مسؤولية الشيعي هي عبارة عن:

١ ـ أن يقول: «لا» في مواجهة الباطل وبرغم أنف المصلحة، وإن تعرض للهلاك!!

٢ ـ أن يعتبر أن قيمة كل عمل ومعناه، وكل عقيدة في المذهب مرتبطة بأن يكون له «قائد صادق ونقي في المجتمع»، وأن يؤمن بأن المجتمع إن فقد القائد.. فكل عمل بلا نتيجة.. وكل عقيدة بلا نتيجة.

٣ ـ الإيمان بأنه من بداية البشرية حتى ختم النبوة (من آدم إلى الخاتم)، ثم منذ ذلك الوقت حتى نهاية عصر الإمام كانت هناك حركة ومدرسة إلهية، وجهاد واحد هدفه كمال البشرية وخلاصها، وتوعية الناس، وإقرار الحرية والمساواة في الدنيا، وهذه المسؤولية متوارثة من جيل إلى جيل بين الأنبياء.. ومن بعدهم إلى الأئمة.. وفي عصر الغيبة تصل إلى البشر المسؤولية

عن عبادة الحق فرداً فرداً[١]، مسؤولية فهم منها كل شيعي أن الحياة عقيدة وجهاد.. ويرى أن كل شهر هو محرم، وكل يوم عاشوراء.. وكل قطعة من الأرض ميدان كربلاء.

٤ ـ أن يأخذ انطباعاً بأن العدالة رؤية كونية (الله عادل)، ويعتبرها هدف رسالة الأنبياء، ويعتبر أئمته ضحايا أوفياء لهذه الرسالة، ويرى نفسه ملتزماً بإقرارها في الأرض، والجهاد في سبيل إقرارها.

٥ ـ أن يرى نفسه أكثر من أي مسلم في نطاق الانطلاق من القرآن والسنة فحسب.. ويفكر ويعمل انطلاقاً من هذا الأمر.

٦ ـ عليه أن يبقى أكثر من كل البشر (لأنه مسلم)، وأكثر من كل الإخوة المسلمين (لأنه شيعي)، مناضلاً لا يقبل المهادنة في

(١) «فرداً فرداً».. هذا الرأي في غاية الخطورة من شريعتي.. وربما كان أحد أسباب الصدام مع الهيئة الدينية الحاكمة معه قبل وفاته. ومع فكره بعد وفاته.. المسؤولية هنا ليست على كواهل العلماء نواب الإمام.. بل على كاهل كل مسلم. «المترجم».

ـ عطفاً على كلام المترجم نقول: أن شريعتي لم يكن يرى هذا التحليل الذي أورده المترجم بدليل أنه يقول في كتاب التشيّع العلوي ما نصّه: الغيبة تعني تحمّل الناس أنفسهم لمهمة تحديد المصير وقيادة المجتمع معنوياً ومادياً، وانتخاب الفرد الأصلح ليقوم بمهام النيابة عن الإمام الغائب. راجع كتاب التشيّع الصفوي ص٣١١ ـ ٣١٢، ترجمة حيدر مجيد، دار الأمير، بيروت ط١، ٢٠٠٢م.

ثم يقول ـ شريعتي ـ: «وأؤمن بالمرجعية العلمية، ونيابة الإمام لتصدّي القيادة الفكرية والاجتماعية، وتعبئة الطاقات وتوظيف القوى والمكانيات، من أجل نصرة الدين والإهتمام بحياة الناس، وتأصيل ثقافتهم الدينية والتاريخية».

راجع كتاب: دين ضد الدين، ص١٨١ ـ ١٨٢، ترجمة حيدر مجيد، دار الأمير، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م «الناشر».

مواجهة الارستقراطية والمجتمع ونظام الاستضعاف والاستغلال والتخدير الفكري والاستبداد، والبنية الطبقية وعبادة المصلحة والمحافظة، ومهادنة القبح والخيانة، أو سياسة اللين معها، والقسوة وخداع العوام والجهل والخوف والطمع، والاغتصاب والتفرقة والتعدي والزور والظلم، والجمود الفكري والتقليد، والتعصب والذلة، ولعبة جمع المريدين، وتقبيل الأيدي، وتسول الظلم، وعبادة المال. والتزهد والانزواء، والمسلك الصوفي، والتكلف في الفلسفة والعبادة، وكل ما يضعف الإنسان أو يخدره أو يحقره أو يقسمه.

٧ ـ أن يعمل على أن يقتدي بعليّ في عمله وعبادته، وقتاله وسله للسيف، وصموده وتحركه وتعامله بطهر، وأقواله وأعماله وأفكاره، وأمواله وجوعه ومجاهدته في توعية الخلق، وكشف القبائح بجرأة وعدم خوف وبرأس مرفوعة، وفي تواضعه، وأن يجاهد في سبيل المدرسة، ويتحمل في سبيل الوحدة، وألا يقعد من أجل العدالة، وألا يجيب الاعوجاج بـ«نعم» واحدة. . وإهلاك نفسه بها.

٨ ـ مسؤولية المفكر عندنا وراثة النبوة في التاريخ، ومسؤولية علمائنا أن يكونوا في الإسلام نواباً للإمام.

٩ ـ مسؤولية كل أسرة شيعية التأسي بأسرة كان الأب فيها عليّ، والأم فاطمة، وزينب ابنة، والحسين إبناً.

١٠ ـ الخلاصة أن مسؤولية كل شيعي في كل عصر وجيل، أن يعرج في كل شيء، كل إنسان إلى «كربلاء الثورة» و«حسين

الشهادة»، وأن يعتبر «الإمامة» و«المساواة» أصل إيمانه وهدفه، وتحققها مسؤولية ملقاة على كاهله!!

وهذا كله يعني أنه: «لا عبادة لعليّ كأنه صنم، بل متابعته كقائد، وفي كلمة واحدة أن يكون مثل عليّ، وأن يعيش مثل عليّ، وأن يموت على ما مات عليه عليّ.

فالتشيع لعلي يعني هذا

ومسؤولية الشيعي هي هذه

الذكر والذاكرون[(١)]

(الدور الثوري للذكر والذاكرين في تاريخ التشيع)

إلماعة إلى أصول بعض عقائد عوام الشيعة

(١) عن رسالة «ياد وياد آوران» نقش انقلابي ياد وياد آوران در تاريخ تشيع.
محاضرة في حسينية الارشاد بتاريخ ٢١ يورماه سنة ١٣٥١ (سنة ١٩٧٢م)
عن نسختين: الأولى النسخة المطبوعة من طرف اتحادية انجمن هاي إسلامي دانشجويان در اوربا وانجمن إسلامي دانشجويان در آمريكا وكانادا عن نسخة الحسينية الطبعة الثانية ١٣٥٦هـ والنسخة الثانية من كتاب شيعة عن حسينية الإرشاد دون تاريخ.

وصفة دواء من أجل مستمع شديد الألم

أزف تهنئتي بميلاد الشهيد وشهداء الإنسانية وإلى كل المطالبين بالحرية والعدالة وإلى كل الذين يؤمنون «بمدرسته» وأزفها خاصة إلى كل من يعرفونه، وأخصها أكثر إلى كل أولئك الذين يشتهون ويتمنون لو كانوا معه..

إن ميلاد الشهيد ذو معنى عظيم يهز، وفي هذه الخليقة العظيمة، الشهيد فحسب هو المخلوق الحي الذي «يولد» ولكن «لا يموت». وفي محاضرة الشهادة التي طبعت في مؤسسة الإرشاد ووزعت[1]، بدا لي فيما بعد أن هناك كثيراً من القضايا تتصل بمبدأ الشهادة ولم تطرح فيها.. ومن هنا أريد هذه الليلة أن أسد هذا النقص.

ميلاد الشهيد: في أوروبا، وفي اللغات الأوروبية، تطلق كلمة الشهيد على الإنسان الذي يختار الموت في سبيل عقيدته كسلاح للنضال ضد الخصم عندما لا يستطيع شيئاً آخر، والكلمة

(١) صدر هذا الكتاب بطبعته العربية الأولى في أواخر السبعينات، حيث قام بترجمته ونشره السيّد موسى الصدر، وأعادت دار الأمير نشره عام ٢٠٠٢م بحلة جديدة.

التي تستخدم هناك للتعبير عن الشهادة والشهيد تختلف عن الكلمة التي تستخدم في الثقافة الإسلامية للتعبير عمن يختارون الموت في هذا السبيل، وتبين اختلاف الرؤية الإسلامية عن الرؤية غير الإسلامية.

تطلق الأمم الأوروبية على الشهيد كلمة Martyre من مادة Mort بمعنى الموت، وفي الإسلام، وعلى الأخص في الثقافة الشيعية ومنطلقها الأصلي الشهادة يختارون كلمة «الفوت» بدلاً من كلمة «الموت». . وفي مقابل هذه الكلمة اختاروا كلمة من مادة «شهد» بمعنى الحضور للحياة، فالشاهد يؤرخ للحي والحاضر، وهذا الاختلاف بين هاتين الكلمتين يدل على اختلاف رؤيتين ونوعين من النظر، ونوعين من التلقي والشعور والفهم في الإسلام والتشيع العلوي عن الثقافات الأخرى في العالم.

لكن القضية التي جعلتني أطرح دور «الذكر والذاكرين» وهو دور ثوري في تاريخ الإسلام، وأصرف نظري عن موضوع الشهادة وهو عميق جداً وأساسي، ذلك لأنه قد جرت عادتي على أن أكون في حالة مطالعة وتفكير وبحث ودراسة وتساؤل ووصول إلى أفكار. . هذا هو عملي الدائم، وأفكاري التي أطرحها دليل على قراءتي وكتابتي وأحاديثي. وإذا كنت أقرأ وأبحث، وأدرك، وأتحدث، فإن الباعث لي على هذا هو ألم يمتد بجذوره في أعماق روحي، وإذا تركت هذا كله، سوف يتوحد هذا الألم بالروح ويقتلني. . وهناك مرض عضال هام في تاريخنا وثقافتنا وديننا

وأهلينا، والغفلة عنه لحظة واحدة سوف يقضي على كل شيء، ومن هنا فقد عزت عليّ الراحة، فالألم أشد من أن يمنحني فرصة للراحة، والمرض أقرب إلى الموت من أن تكون هناك إمكانية التفكير في ما يعجب الآخرين أو لا يعجبهم.

وها أنتم أولاء ترون أنني لست طبيباً خالياً من الألم بحيث أفحص بهدوء.. وأكتب الوصفة.. لكني متألم بين جمع غفير من المتألمين.. مع فرق واحد وهو أنني ربما أحس بالألم أكثر قليلاً من بعض الناس، وأعرف المسؤولية أشد وأعمق مما يعرفها بعض «المسؤولين الرسميين»، وربما لا يكون الأمر كذلك وأكون فحسب أكثر قلقاً من أن استطيع أن أفكر في المصلحة، وأقل شهرة ومالاً من أن أقدم للنزعة المحافظة تبريراً عقلياً، وأكون منتبهاً فحسب إلى أن أقول شيئاً «وسطاً» بحيث لا يحترق السفود ولا الشواء.. ومن ثم فلا أنا كاتب محترف، ولا خطيب محترف.. ولا يستطيع مستمعي أيضاً أن يكون مستمعاً محترفاً (من المستمعين الأعزاء)!!

إنني لا أقوم بالكتابة أو بالخطابة كعمل إلى جوار أعمالي العادية، كما أنني لم أختر الكتابة والخطابة كعمل.. فما أقوم به هو صرختي ليل نهار وهو صوت أنفاسي.. وإن لم أبحث وأفهم وأكتب وأتحدث.. مِتُّ، ومن هنا فأنا لا أعرف وقتاً للكتابة أو للخطابة.. وهل يمكن تحديد وقت معين من أجل التنفس؟ وهل هناك ترتيبات ونسق من أجل معاناة الألم والصراخ؟! ولا أعرف عملاً أهم.. أو أي عمل في الأصل يعفيني القيام به فترة من التنفس!! وبالطبع ينبغي على القارىء والسامع أيضاً أن يقرأ ويسمع

بنفس الطريقة، بحيث تظن أنه يتنفس. . مثلما أتنفس أنا. . وأحس بالحياة. . ومن ثم يوجد بين المتحدث والسامع نوع من العلاقة لا يمكن أن تكون من نفس نوع العلاقة التي تربط بين المتحدثين والمستمعين والكتاب والقراء العاديين والطبيعيين المعقولين والمنطقيين والمحترفين.

وذات ليلة ـ وأنا في حالة غير عادية وأحس أيضاً بأن نفس الحالة موجودة عند المستمعين إليّ ـ كنت أطرح هذه القضية الحيوية وهي: إننا إذا طرحنا «التشيع الصفوي» جانباً. . وكانت علاقتنا مباشرة بالتشيع العلوي، حتى تسطع أشعته مباشرة على قلوبنا ـ دون أن تمر بأجهزة التنقية الصفوية ـ فإن ضمير العالم الثالث اليوم، والجيل المتمرد في قرننا الحالي، والضمير المسؤول الواعي عند كل المسلمين، كلها سوف تقبل الشعارات الأصيلة للتشيع، أي الإمامة والعدالة والإيمان والوحدة. . ففي كل أنحاء الدنيا تعتبر الشعارات الأصيلة في عالم اليوم هي الإيمان. (في الغرب) العدالة ومكافحة الطبقية، (في العالم الثالث) الإيمان والعدالة ومكافحة الاستغلال الطبقي. . ثم وبخاصة الوحدة في مواجهة الامبريالية والصهيونية (في العالم الإسلامي)، وهذه هي الشعارات الأصيلة للتشيع العلوي. . وحينذاك فإن المستمع البديل ـ الذي كان من المستمعين المحترفين ـ الذي لديه ما يشغله، ولديه حياته، ويقسم أوقاته بين العمل والأسرة والترفيه والأمور الصحية والحاجيات المعقولة جداً والمنطقية. . ويخصص الوقت القصير منها لأمور الخير والأمور الدينية ـ هذا المستمع كان قد ارتفع صوته

قليلاً قليلاً: «وكنت قد اتفقت مع المدام أن نذهب إلى مطعم «أرز بالشواء» في الساعة العاشرة والنصف بعد مجلس ديني. لكن البرنامج لم ينته حتى الساعة الحادية عشرة، والمدام في مكان السيدات وأنا في مكان الرجال وكلانا بعيد عن الآخر.. ونحن بعيدان عن «الأرز بالشواء»، ثم ينصحك قائلاً «سيدي.. الناس لديهم برنامج.. وأنت تقوم بعمل ما من شأنه إفساد برامج الناس فلا يعودون ويذهبون إلى مكان تنتهي برامجه في الوقت المحدد!!» ها أنتم أولاء ترون أن مثل هذا لا يستطيع أن يكون مستمعاً لنا، ويستمع إلى صرخات آلامنا، ولا نحن نتحدث إلى هؤلاء الذين لا يشعرون بآلام، والذي يحتوي قيامهم بأمور الدين ومعتقداتهم على برنامج.. يكون أحياناً قبل الأرز بالشواء.. وأحياناً بعده.. فهو على كل حال هامش على الأرز بالشواء!!

في تاريخ الشيعة

الدور الثوري للذكر والذاكرين: أُريد تحت هذا العنوان أن أطرح أيضاً كل العقائد والشعائر الخاصة بالشيعة، حتى العقائد التي تبدو اليوم، بين مفكر واعٍ ومسؤول اجتماعياً وذي رؤية علمية وتقدمية أيضاً.. تبدو متوهمة وغير ذات منطق وعامل تخدير ورجعية، وسواء كان دينياً أو غير ديني، وسواء كان شيعياً قحاً مؤمناً أو غير شيعي، لا يتردد في إدانة هذه المجموعة من الشعائر والعقائد. ونحن أيضاً الذين نؤمن بالتشيع، ونعتبره مذهباً شديد التقدمية وأنه عامل نجاة وباعث وعي بالنسبة لإنسان اليوم ونعرفه جيداً، كنا ندين هذه القضايا بشدة، ونؤمن بأنه ينبغي مكافحتها

والقضاء عليها، حتى يمكن أن تمحى من ذهن المجتمع، وبعد ويهمنا من أجل تقبل العقائد والشعائر الأصيلة والأساسية للتشيع. . وبناء على هذا فإن موضوع حديثي هو العقائد والشعائر الأصيلة، وأيضاً السنن والمظاهر والأعمال التي تبدو في نظر المفكرين التقدميين، حتى المتشيعين تماماً، عامية ومنحطة ومدانة!!

أُريد هنا أن أحدد العقائد والأحكام التي تتعرض للاعتراض والنقد، وأوضح السبب في أن هذه العقائد والأحكام كانت تتعرض للنقد من جانب هذه الأنماط الفكرية ومن بينها أنا نفسي، وكانت تعتبر مغامرة ومتناقضة مع التشيع الأول. . أي تشيع عليّ وعترة الرسول وآله:

تقييم الوقائع في ظرفيها الزماني والمكاني: بناءً على مبدأ مهم في علم الاجتماع، يتغير مفهوم كثير من الأفكار والأعمال ورسالتها ودورها. . على مدى تطور المجتمع وفي مسيرة تغيرات الزمان والتاريخ، وهذا التغير والتحول يبلغ مسافة ما بين «الإيجابي» و«السلبي» من أكثر الأدوار ثورية حتى أشد الأدوار رجعية. وأحياناً يغير التاريخ والتطور الاجتماعي والاختلاف بين النظم الاجتماعية ومفهوماً من المفاهيم، أو ظاهرة من الظواهر بحيث يبدي «الخير» «شراً» و«الرجعي» ثورياً، والثوري رجعياً، والمنطقي غير منطقي وغير المنطقي منطقياً!!

وهذا بالطبع بخلاف الحقائق والمبادىء المطلقة، أقصد الحقائق والمبادىء ما فوق الطبقية، أو بالمصطلح العلمي ما فوق التاريخية والثابتة في كل النظم الاجتماعية، وفي كل العصور

المتغيرة لتاريخ مجتمع ما، فإن كثيراً من الأحكام والأعمال والأفكار البشرية تكون ذات، معنى إذا وضعت في ظرفيها الزماني والمكاني، بحيث أن تغير هذان الظرفان ـ أي الوضع الاجتماعي ـ فإن ذلك المعنى يتغير بدوره.

إذن فلنقبل هذا كمبدأ أساسي، وهو أننا عند تقييم أي ظاهرة، علينا أن ننظر إليها بنفس النظرة التي كان ينظر إليها بها في عصر ظهورها. . لا أن نأتي وبعين القرن العشرين، وبعد قرنين من الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية الكبرى، وثورات العالم، وتغير نظام الانتاج، والعلاقات الاجتماعية، والاقتصادية والأسرية، والأخلاقية، وننظر إلى ظاهرة ظهرت في عصور سابقة كان لها دورها الخاص، وبمثل هذه النظرة إذا أصدرنا حكماً، يكون حكماً منطقياً ما دمنا نزنه بمنطق اليوم، لكنه بلا داع وبلا قيمة. . لأن ما ندينه لم يعد له وجود بعد. كان موجوداً في فترة أخرى. . وكان يعني شيئاً آخر. . ومن هنا كما يقول البروفسور برج: «علينا أن نقيم كل حقيقة اجتماعية في ظرف زمانها ومكانها» فعلى سبيل المثال عندما نتحدث عن تعدد الزوجات في الإسلام وفي حياة الرسول ﷺ علينا أن نجعل الروابط الاجتماعية والزمان والمكان معياراً للحكم ثم نجلس للتقييم، إذ أن فصل ظاهرة اجتماعية أو قانون أو تصرف ما من أرضيته التاريخية والاجتماعية والحكم عليها بشكل مطلق ومجرد، أمر عامي، وذلك لأن كل ظاهرة تتغير خلال تطور النظم الاجتماعية من حذف لا نهاية له، إلى إضافات لا نهاية لها. . وتتبدل من صورة أكثر الظواهر تقدمية إلى أكثرها انحطاطاً.

وهنا أرى لزاماً عليّ أن أذكر أن منظوري ليس العقائد والأحكام المطلقة، وما هو فوق التاريخ والطبقات والاقتصاد والمجتمع ومثل قوانين الطبيعة ـ لا مظاهر الطبيعة التي هي في حالة تغير دائم ـ ثابتة على الدوام. كان كشف هذه النظرية في شعائر الشيعة بالنسبة لي محدثاً لهزة، ومثيراً للانفعال، ذلك أنه قبلها كانت هناك كثير من القضايا العقائدية والعملية توجد في المجتمع الشيعي الحالي، وكانت تعتبر وتقيم كانحرافات، وكنت أرفضها كلها. . كنا نرفضها، وكنت أوجه إليها الانتقادات وأتمنى لو اختفت كلها وتركت موضعها لعقائد الشيعة الأولى، غافلاً عن أنها هي نفسها كانت قضايا وعقائد وأعمال ذات دور ثوري ومنطقي ومخلص خلال المصير الشيعي، خاصة المصير التاريخي.

ومن هنا أُريد أن أطرح ما تعلمته كدرس لي ولكم وأقول: كلما وجدنا ظاهرة دينية أو اجتماعية في مجتمعنا وقيمناها بالمنطق؛ وقارناها بالمسؤوليات المطروحة اليوم ووجدناها غير منطقية وقمنا بادانتها، علينا أن نجعل الضوابط العلمية للعصر ومعيار التاريخ ـ أي مصيرها الخاص في حتميتها التاريخية ـ موضع نظر، ونقيمها بتطبيقها في زمانها ومكانها الخاصين.

وبالتالي، فمن أجل المعرفة والفهم العميق والعلمي لظواهر مذهبنا العقائدية والعلمية والاجتماعية، ومن أجل الوعي بالرسالة الخاصة التي كانت عند الشيعة في الإسلام، سواء من الناحية المذهبية أو الناحية الاجتماعية، علينا أن نقيم القضايا التي نحتك بها الآن في ظرفيها الزماني والمكاني الخاصين ونعرفها على هذا

الأساس. . أي علينا أن نبين في البداية الظرف التاريخي الخاص بالشيعة، ثم نصب هذه القضايا في هذا الوعاء ونقيمها ونحكم عليها ونقيها.

وأعيد القول هنا موضحاً أن حقائق الإسلام والتشيع حقائق ثابتة لا تتغير. . والذي ينبغي أن يتغير هو نوعية الإيمان. . ووسيلة العصر وأدواته والوسائل المادية والمعنوية، وأسلوب التعامل ونوع الجهد الذي لدينا في سبيل إحياء هذه الحقائق الثابتة، والمحافظة عليها ونشرها؛ لأنه إذا اعتقد أحد في أنه ينبغي عليه أن يحدث تغييرات في الأصول العقائدية أو العملية للإسلام بما يقتضيه العصر، لا يمكن اعتباره مؤمناً بدينه، لكن يمكن قبوله كزعيم اجتماعي أو مفكر أو كإنسان «ينوي خيراً بالنسبة لمجتمعه».

والفرق والأجنحة والرؤى المختلفة الإسلامية والشيعية كلها مشتركة في هذا الاعتقاد القائل: «إن الأصول التي تستنبط من القرآن والسنة سواء كانت عقائدية أو عملية أصول ثابتة ولا تتغير، لكن هناك اختلافاً بين الشيعة والسنة في الرؤى فيما يتعلق بنوع الدفاع عن هذه العقائد وعرضها وطرحها. . ومن هنا توجد جماعة ـ مثلنا ـ تؤمن بأنه ينبغي أن تصب الحقيقة الثابتة للإسلام والأصول والقيم اللا متغيرة للتشيع في ضوء أنواع الفهم المتطورة للزمان، وتطرح أيضاً طبقاً للغة العلمية والرؤية الاجتماعية واحتياجات العصر والأمة ومشكلاتها، وباعتبار هذه القضايا والحقائق العينية ثابتة، وذلك لأن «العصر» مثل حقائق الوجود والطبيعة ثابت، لكن ما أتحدث عنه «علم» وهو علاقتنا بالحقيقة الخارجية. . في حال تغير وتطور وتكامل، وبتغيره

وتجليه وتكامله تضيع الأصول الثابتة وهي الطبيعة ويتضح ما يسمّى بالقوانين العلمية ـ والوحي ـ وهو عبارة عن مجموعة ما نزل ـ حقيقة ثابتة وعلمية لا تتغير. لكن علمنا بهذه الحقيقة وهو القرآن ونوع تفسيرنا وفهمنا وعملنا وقيامنا بالدعوة هي الأمور التي ينبغي أن تتطور وتتكامل وتنضج طبقاً لتكامل البشر وتغيرهم، واختلاف أوضاع النظم والهموم والحاجات.

هذا هو ما أريد أن أطرحه، وهذا هو نفس الشيء الذي يطرحه من يشاركني الفكر، ومن يشاركني العقيدة من موضع أخر ومع مستمعين آخرين. وينبغي أن يعطيني الحق في أنه ما دمت أوجه الخطاب لآخرين يختلفون من الناحية الفكرية الثقافية والتقليدية في اختيار لغة أخرى، واستخدام مصطلحات أخرى، وأن يكون لي نوع الرؤية والتفسير والاستدلال يختلف عما هو له، وهذا الاختلاف في اللغة والتطور من الرؤية والتفسير وارد وينبغي أن يوجد، ذلك أنه إذا كان سوق المذهب قد كسد، فذلك ينسب إلى الافتقار إلى اللغة والرؤية والاستدلال بالقدر المطلوب. وإلاّ فإن الحاجة إلى الدين وقلق العثور على الحقيقة.. لم يكن شديداً في يوم من الأيام بقدر ما هو اليوم حتى في مجتمعنا المتخلف ثقافياً. والشباب المتكلم اليوم، المهتم بالإعراض عن الدين، أكثر انجذاباً وشغفاً وميلاً من الجيل السابق والجيل الأسبق المتهم بالتدين وعبادة الحقيقة، وحيثما تحدثنا عن الإسلام بلغته، أبدى مسؤولية وإيماناً أكثر مما هو موجود لديك، واهتم بكل كلمة، اهتماماً يفوق اهتمامه بكلمات أولئك الذين كان يرى مصيره في

أيديهم. وفضّل طلابنا الكتب الدينية المكتوبة بلغتهم عن كتبهم الدراسية حتى في ليلة الإمتحان.. وهربوا بقدر ما استطاعوا من قاعات الدرس إلى أماكن كانوا يسمعون فيها عن الدين بلغتهم ومصطلحاتهم واستدلالاتهم.. وليس بلا دلالة أن معدل توزيع الكتب الدينية المكتوبة بلغة هذا الجيل[1] عشرون ألف نسخة، بينما يصل معدل الكتب الفنية والشعر والآداب وأمثالها.. تلك التي يواصلون أقصى الجهود في جعلها «دُرجة» إلى ألفي نسخة.

ومتى كان هذا الإقبال وهذا الحماس وأين؟! لكنه موجود الآن، إذا كنا عارفين بلغتهم بحيث يفهمون لساننا ويتقبلونه، واختلافاتنا مع شريحة من المؤمنين هو نوع من سوء التفاهم الناتج عن اختلاف اللغة بيننا.. وقد أدى اختلاف اللغة إلى اختلاف العقيدة.. أقول على سبيل المثال في «دروس معرفة الإسلام»: «إن أحد أصول الإسلام هو إقامة علاقة مباشرة بين الإنسان وربه»، فإذا بهم يسألون: إذن ماذا تقول في وجود علماء الدين ورجال الدين في الإسلام والتشيع؟! بينما قلت في معرفة الإسلام جواباً على هذا السؤال: «إن اتساع نطاق القضايا الدينية بسبب اتساع نطاق العلاقات الاجتماعية، واتساع نطاق العلوم والأفكار والاحتياجات المادية

(١) والمكتوبة أيضاً بنفس لغة هذا الجيل.. وكتب الجنة والنار والجحيم والقيامة والأحاديث الموضوعة وأحاديث الرواية وكل ما ينفر من الإسلام ويجليه كدين «ماضي» و«شكل».. وأرصفة شوارع القاهرة ودور النشر المشبوهة تشهد على ذلك.. وفي معارض كتب الجماعات الإسلامية لا يعرض شريعتي؛ لأنه في رأيهم «رافضي فاسق». «المترجم».

والروحية للإنسان أدى بالتدريج إلى ظهور الحاجة إلى التخصص في الإسلام. تماماً كما نرى ما حدث في الفلسفة اليونانية؛ ولهذا السبب وبشكل طبيعي ظهر أناس وقفوا جهودهم على تعليم العلوم الدينية وتعلمها؛ لأن الأمر ـ خلافاً لما كان موجوداً في صدر الإسلام ـ لم يكن الجميع يستطيعون الإلمام بالقضايا الدينية التي تعني لهم بينما هم مشغولون بأمور حياتهم المختلفة. ومن هنا أصبح من الضروري أن توجد جماعة باسم رجال الدين، لكن من الناحية القانونية ومن وجهة نظر علم الاجتماع والسياسة. هناك فرق بين «الضرورة» و«الرسمية»، فوجود علماء الطب والفيزياء ضروري، لكن ليست لهم مناصب خاصة بهم تعد حكراً عليهم، ومن هنا لا يمكن أن يقوموا بإحداث «استبداد» أو «اختناق» أو «تحجر» أو «توقف» في الطب والفيزياء.. لكن لو كانت لهم «رسمية» لوجدوا القدرة على هذا»[١].

إن المناصب الدينية ضرورية ودائماً ما هي موضع حاجة، ويتم اختيارها نتيجة لاحتياج المجتمع، وشعور كل الناس ووعيهم، وبإرادتهم جميعاً، وهم مراجع الناس وسندهم ومجال إيمانهم.. ولا يمكن لهم أن يقوموا بالظلم والتعدي.. أو الانزلاق إلى الفساد.. وهذا لأنهم اختيروا على أساس جدارة.. ولاتصافهم بالصفات الإنسانية الطيبة.. لكن المنصب الرسمي «له رسميته» حتى وإن لم يتميز شاغله بهذه الصفات.. وعلى سبيل

---

(١) إسلام شناسي ص٣٣.

المثال لا يمكن لحارس ليل أو خازن اختاره الناس. . أن يتفق مع اللص أو يقوم هو نفسه بالسرقة، والمعلم الذي يختاره الناس في مكان لا مدرسة فيه للقيام بالتدريس، لا يمكن أن يكون جاهلاً أو منحرفاً أو مهملاً سيىء الخلق. . لكن إذا كان صاحب وظيفة رسمية. . فإن حارساً أو معلماً من الدرجة الخامسة مثلاً. . قد فرض رسميته، فمن الذي يستطيع أن يقف أمامه؟!!

ومع هذا، ومع كل هذه الأمثلة، وكل هذا التوضيح، يجلس أحدهم ـ وهو بالصدفة متعلم ـ ويقول: إن فلاناً ـ ويقصد الفقير ـ لا يقبل رسمية المناصب العلمية والدينية في الإسلام. . ويظن أني بعدم قبولي هذا قد حقرت من شأن رجال الدين، في حين أنه لو فهم لغتي لأدرك. . أن اعترافي بالرسمية لهم هو التحقير[1]. إن اعتباري إياهم ضرورة هو تأييد وتكريم للهيئة الدينية التي اختيرت من قبل الناس على أسس من التقوى والعلم والضرورة والحاجة.

إن الأخ المسلم الذي كان في صدر الإسلام يعمل ثلاثة شهور في السنة ويقضي بقيتها بلا عمل، كان يستطيع أن يواجه دينه وأصول عقائده مباشرة. . فلا كان كل هذا الاختلاط للدين بحق أو بغير حق، ولا كان كل هذا الانشغال والعمل. كنا فيما بعد عندما واجهنا إسلاماً مختلطاً بالفلسفات، وظواهر الثقافات الأخرى، كما

---

(١) مثل موقف فقهائنا من حكم الفقهاء في إيران. . لقد وقف فقهاؤنا وقفة رجل واحد لكي يبينوا أن الفقيه لا يمكن له أن يقود ويحكم. . تصوروا إنسان يُحقّر نفسه وشرعيته لإرضاء الحاكم!! المترجم.

أصبح العمل والمشاغل لا يمنحان فرصة الدرس والمتابعة، كما أخذت الثقافة الإسلامية من ناحيتها تتوسع يوماً بعد يوم وتمتزج بالدس والتحريف وعناصر مختلفة أخرى.. طرحت ضرورة وجود أشخاص متخصصين في الثقافة والتاريخ والعلوم الإسلامية، ومن ثم فهم أناس أوجدتهم ضرورة علمية وإسلامية نتيجة لتكامل الوضع الاجتماعي والثقافي والمدني، وأصبحوا من المناصب الضرورية.. وبالطبع لا يمكن أن يكونوا منحرفين أو أميين.. كما هو موجود في الهيئة الدينية الرسمية المسيحية!!

وإذا كنا نتعرض للهجوم في طرح مثل هذه القضايا فهذا راجع إلى سوء التفاهم الناتج عن ازدواجية اللغة.. ومن دلائل اختلاف اللغة.. التفسير الذي قدمه أحد أولئك «الذين لا يفهمون اللغة» لاسم كتابي «مسؤولية أن تكون شيعياً» وقال: هل التشيع جريمة حتى لا تكون فيه مسؤولية؟! وله الحق.. فهو لا يعلم أن المسؤولية في لغة مفكر اليوم تعتبر مصطلحاً حساساً ومقدساً.. لقد سمع هذه الكلمة فحسب على لسان «المشهلتية» والمرتشين من موظفي الإدارة.. فقد كان لديه دائماً طلب غير مشروع، وكان يسمعها منهم دائماً «لا يا سيدي.. لا أفعلها.. هذه جريمة.. إنها مسؤولية بالنسبة لي»!! وسيادته يظن أن المسؤولية إذاً هي القيام بعمل غير مشروع!!!

ها أنتم أولاء ترون أنهم لا يفهمون اللغة فحسب، إلا فأنا أيضاً أنادي «بالعدل» وهم أيضاً ينادون «بالعدل»، ومن أجل أن أفهم من يشاركني الفكر واللسان حتى لا يختلط عليه الأمر بين

العدل الإسلامي والعدالة التي يطرحها الآن دالاس[١] أقول: «العدل الذي يركز عليه الشيعة وأكثر أبعاد معانيه أساسية مكافحة الطبقية» وهو لا يفهم ما أقول. يعلن أني لا أفتأ أتحدث عن عدل آخر فيقول: «لا علاقة للعدل الشيعي بالطبقات الاجتماعية، إنه مرتبط بالآخرة».

الضرورة الاجتماعية والمشيئة الإلهية: إنهم يوجهون إليّ النقد على أنني أحياناً أقوم بتفسير القضايا الشيعية والإسلامية تفسيراً اجتماعياً وطبقياً، في حين أنها فحسب ذات تبرير إلهي.. أي أنه ليس صحيحاً ما أقول، من أنه «قد ظهرت حركة الإسلام في وقت كان العصر يحتاج إليها.. وكان الإيراني والرومي والعربي في القرن السابع الميلادي يعانون أكثر من ذي قبل، وبوعي من التفرقة الطبقية والاستبداد السياسي والتفرقة العرقية، وهذه الأرضية استوجبت أن ينتشر الإسلام في جزء كبير من العالم المتحضر آنذاك كل هذا الانتشار في النصف الأول من القرن الأول للإسلام».

يقولون: «هذا تفسير مادي، إنه يعتبر الإسلام ظاهرة اجتماعية وتاريخية في حين أن الإسلام ظاهرة من الوحي، نزل من السماء، وانتشاره فحسب هو إرادة الله». وأريد أن أقول هنا: إن «الظاهرة الاجتماعية» و«الظاهرة التاريخية» و«الضرورة التاريخية» و«القانون الاجتماعي» مع «المشيئة الإلهية» ذلك لأن الرؤية

(١) الآن دالاس رجل المخابرات الأمريكية الشهير وفكرته عن العدالة نابعة من مصلحة أمريكا أولاً.. وثانياً.. وثالثاً.. المترجم.

الإسلامية رؤية «مهتمة بالتوحيد». والرؤية التي ترى كل ما هو اجتماعي وقانوني ومادي واقتصادي خارجاً عن نطاق الله، وتنسب كل ما هو غير عادي وغيبي وغير قانوني ومخالف للمبادىء العلمية إلى الله، لا يمكن أن تكون رؤية إسلامية. . وذلك لأن المعنى الأول للتوحيد هو أن كل ما يبدو في عالم الوجود. . في الغيب والشهادة. . والمادية والفرد والطبيعة وما وراء الطبيعة. . كله صادر عن المشيئة الإلهية بنفس درجة كونها ظواهر متولدة من قوانين علمية، وأن قانون «هكذا تقتضي الحتمية التاريخية» تستخدمه بمعنى «هكذا شاءت الإرادة الإلهية» وأنه يمكن الإحساس بالله في قطعة خبز ساخن في يد جائع بقدر ما يمكن الإحساس به في ظاهرة غيبية.

إذاً: لماذا نعتبر فحسب أن الأشياء المخالفة للقوانين العلمية والحتمية والتاريخية والاقتصادية والمنطق من الله، وعندما يموت المرء فحسب نقول: إنه في ذمة الله؟! ففي سلطان من إذاً كان قبل أن يموت؟! هل يوجد الله في الآخرة أكثر مما يوجد في الدنيا؟! هل يوجد في الأرض أقل مما يوجد في السماء؟ وفي الروح أكثر من الجسم؟! وفي الخبز أقل مما في الصلاة؟!! حقيقة كيف نفهم التوحيد؟

ومن هنا فعندما نقول: إن رسول الإسلام كان ذا رسالة بشرية واجتماعية، هو نفس قولنا: إن الرسالة قد عرضت عليه، ونزلت عليه من لدن الحكيم الخبير، وأن القرآن هو الحقائق التي نزلت عليه مباشرة عن طريق الوحي. . أي أنها هذه الحقائق التي تنطبق

مباشرة مع الضرورة الاجتماعية، وبنفس هذا الدليل القائل: بأن القرآن قد نزل على الرسول تدريجياً وبحس الوقائع والضرورات والأحداث وتطورات المجتمع الذي كان الرسول موجوداً فيه!!

اليسار واليمين: نحن نستخدم مصطلحي اليمين واليسار لا بالمعنى الفارسي، ولا بالمعنى الذي يقصده المفكرون عموماً.. بل نستخدمهما بمعنيهما في الثورة الفرنسية الكبرى.. في المجلس الوطني الفرنسي كانت هناك جماعتان من النواب. جماعة منتخبة عن الأشراف وأصحاب رؤوس الأموال والاقطاعيين.. وعدد كان ممثلاً عن العوام جماهير الناس، كان ممثلو الأشراف والطبقات الحاكمة يجلسون في الناحية اليمنى من المجلس، وممثلو الجماهير يجلسون في الناحية اليسرى، إذن فاليميني ممثل الطبقات الحاكمة والمستغلة، واليساري هو ممثل الطبقات المحرومة، واليسار مجموعة من الأعمال والتصرفات والاتجاهات والآراء والعقائد والآداب والفنون التي توضع في خدمة جماهير الناس، واليمين مجموعة من نفس هذه الأمور في خدمة الطبقة المرفهة التي هي في كل عصر طبقة خاصة، ففي عصر تكون الطبقة البورجوازية، وفي عصر آخر تكون الطبقة الاقطاعية، وفي عصر ثالث تكون الطبقة الرأسمالية.

الموقف الطبقي للتوحيد: حدد رسول الإسلام بإعلانه التوحيد والنضال ضد عبادة الأصنام الموقف الطبقي للتوحيد.. والذي كان إلى جوار الطبقات المحرومة.. وهذا كما فهم أصحاب البساتين في الطائف وأصحاب تجارة القوافل من قريش.. وسادة

العبيد من العرب أن «لا إله إلا الله» تعني أنك ودينك وقيمك لا شيء. . وأن هذا شعار ضدك، ضد الطبقة الأكثر ترفهاً. . وأنه في صالح الجماهير المحرومة، والرسول وعليّ بأول ضربة قاما بتوجيهها ونزلا بها على جسدي اللات والعزى إنها كانت موجهة إلى كانزي الذهب، وأرباب العبيد، وأرباب الأرض. . وكل طبقة فهمت التوحيد بسهولة ما عدانا نحن، إذ نظنها قضية فلسفية وميتافيزيقية وذهنية. . فقد اتخذت طبقة الأشراف موقفاً وأحست بالخطر، أما أولئك الذين كانوا يفتقدون كل القيم الأرستقراطية الجاهلية فقد وجدوا شعارهم. . وسمعوا نداء مخلصهم (وهنا توضيح: أنه من حيث اتخاذ المواقف الطبقية. . ليس المراد أن كل ثري كان في الطبقة المضادة وكل فقير كان في الطبقة المؤيدة. . إذ كان هناك من الأثرياء من ينضمون عند اتخاذ الموقف الاجتماعي إلى اليسار، كما أن هناك فقراء في اليمين. . لكن الطبقة الاجتماعية ليست هكذا. . فهناك فرق بين الطبقة الاجتماعية والفرد).

وعلى نفس المستوى الذي كان رسول الإسلام يقوم به في مسيرة القيم الإنسانية والأخلاقية والعقائدية، كان يقوم بتوسيع نطاق رسالته الاجتماعية في مسيرة مكافحة الطبقة الارستقراطية في زمانه تلك الطبقة المكونة من أصحاب القوافل، وأرباب العبيد، وأصحاب البساتين في الطائف، وكان يعيد الشخصية الإنسانية للجماهير إليها، ومن هنا فإن عبداً حبشياً أسود مثل بلال يكون في حركة الإسلام ذلك الشخص المحبوب البارز رفيع الدرجة بحيث يحس أشراف قريش العظام بالنقص أمامه. . وهذا يدل على مرتكز

الحركة وموقعها من ناحية الجناح الطبقي والاجتماعي. . وأية طبقة توجهت إليها أنظار لطف الله ـ إله هذه المدرسة الفكرية ـ ومنته ونعمته.

ومن هنا فرسالة الإسلام كإيديولوجية إلهية هي خلاص الطبقة المحكومة والمحرومة. . ومكافحة القوانين الوضعية، والقيم الفنية والأخلاقية المرتبطة بالطبقة الحاكمة. . وهكذا كان، فبتحطيم اللات والعزى وانهيار الأصنام الجاهلية. . اختفى الشعر الجاهلي الذي كان ممتلئاً بالصنعة والجمال، وفي نفس الوقت حافلاً بأنواع التفنن الارستقراطي. . كما أنهارت الملابس وأنواع الزينة والفخامة والعظمة والجلال المرتبطة بالارستقراطية، ولم يعد أحد يستطيع أن يفخر بأجداده، أو أن يجلس مادحاً فلاناً الغني أو أسرة كذا. ذلك لأن «الحمد لله رب العالمين» هو الجدير فحسب بالثناء سبحانه وتعالى.

الرسالة في يد والسلاح في اليد الأخرى: قام رسول الإسلام برسالته: **الأولى**: النبوة والبلاغ والرسالة، وكانت كسائر ما كان للأنبياء الآخرين، كان قد تلقى رسالة، وعليه أن يبلغها للناس وقد بلغها. . أما الرسالة الأخرى: فهي وضع هذه الرسالة الأولى موضع التطبيق والإمامة، والقيام بقيادة المجتمع، والتعليم الجماعي للبشر لتشكيل أمة تكون نموذجاً للمجتمع الإنساني، وهذا يتطلب القيادة السياسية والاجتماعية والمسؤولية والالتزام والصدام والحرب والجهاد. ومن هنا أمسك الرسول الرسالة في يد والسيف في اليد الأخرى، فالرسالة تمثل المدرسة الفكرية والنبوة،

والسيف يمثل الرسالة والقيادة والإمامة.

والإيديولوجية، المدرسة الفكرية والرسالة، تصل في خلال ثلاث وعشرين سنة إلى الخاتمية، لكن إنجاز الرسالة الاجتماعية بمعنى بناء الأمة يُشكل مجتمع «طبقي» مضاد للارستقراطية ونظيف وطاهر تماماً من آثار الجاهلية وتلك الثقافة اللاإنسانية القديمة، وتنمية جيل متعلم وذي وعي ذاتي على أساس قيم ثورية جديدة وعلى أساس جديد في ظرف جيل أو جيلين أمر غير ممكن.

ومن هنا فإن الرسول هو فحسب «خاتم الأنبياء» وختمت مسؤوليته كنبي فحسب أي ما تعبر عنه الآية الكريمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1]. لكن رسالة بناء المجتمع وبناء الجيل وبناء النموذج وتكوين مجتمع نموذجي مضاد للأرستقراطية ولا طبقي.. يتشكل من أناسٍ واعين لمسؤوليته ذوي استقلال ووعي بالعقل الإنساني، حيث الرسالة لم تنته بعد وينبغي عليها أن تتم من خلال قيادة ثورية تواصل الخاتمية.. إذن فقد تمتد الرسالة الأولى للرسول كمبلغ للرسالة والإيديولوجية، وكقائد ثوري وتصل إلى الخاتمية، لكن الرسالة الثانية أي قيادة المجتمع وبنائه تستمر خلال عدة أجيال وتتواصل وتصل إلى التكامل.. ومن هنا فالرسول هو ختم النبوة، وآخر إمام في الأئمة الأوصياء في نظم الوصاية والإمامة، يصبح خاتم للأئمة أي خاتم بناء مجتمع النبي، ومن بعد الرسول يبقى الإيمان به.. لكن رسالته الاجتماعية لم تبق، فهناك من صحابة

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

الرسول من قبلوا الإسلام كإيديولوجية إلهية وكدين، لكنهم وأدوا الموقف الطبقي والرسالة الإجتماعية الخاصة بالرسول. . في السقيفة» بقي الإسلام كحركة دينية، لكنه هزم كرسالة اجتماعية، وفي السقيفة انتصرت الرؤية الطبقية لمجتمع العرب على الرؤية اللاطبقية لرسالة الإسلام وثورته، في «السقيفة» إنهارت القيم الثورية التي كانت تدور حول شخصيات من أمثال أبي ذر وبلال وميثم وبقيت قيم كانت تدور حول شخصيات أرستقراطية جاهلية.

وبناء على هذا فقد هزم الجناح اليساري في المجتمع بعد الرسول، وكان مظهره ومحوره عليّ. . وهو تجسد الروح المضادة للأرستقراطية، والمضادة للطبقية في رسالة الإسلام، وانتصر الصحابة الكبار أي المسلمون المؤمنون الذين يؤمنون بالمدرسة الفكرية من حيث هي إيمان. . لكن ميلهم الطبقي كان إلى اليمين، كما كان المجتمع الجاهلي. إذاً فمن بعد الرسول انقسم الإسلام إلى جناحين: جناح جماهيري وجناح حاكم، جناح اليمين وجناح اليسار، اليسار واليمين بالمعنى السائد في الثورة الفرنسية الكبرى. . جناح العدالة وجناح الحاكمية والسيطرة. . وهذا الانقسام إلى يمين ويسار. . إزداد عمقاً على مر التاريخ. . ووجد إسلام صار أداة لتبرير الطبقية الحاكمة بل والنظام الحاكم (أقصد بالنظام الحاكم كل أولئك الذين يكونون أكثر تمتعاً بمقدرات المجتمع من أموال وإمكانات مادية ويقومون باستغلال الآخرين. . وهؤلاء ـ حتى وإن لم يدخلوا في السياسة ـ هم الطبقة الحاكمة) واتخذ شكل إيديولوجية بلا دولة بحيث دخل في خدمة أجهزة

الخلافة والسلطنة، وتسمى «بالسنة»، أما الإسلام الآخر ـ إسلام عليّ ـ فقد اتخذ بقوة واقتدار ويضم جبهة مضادة للطبقية، ونهض كإيمان مخلص وواهب للأمل، يميل للدفاع عن الطبقات المحرومة المقيدة بأغلال الاستغلال، وأولئك الذين كانوا يتعرضون للاحتقار على يد الإسلام الحكومي والتسنن الأموي والإسلام الطبقي، وكانوا يقيمون على حرمانهم.

إذن فطبقاً لقانون دقيق ومنطقي، وبقدر ما يتحول التسنن إلى صورة تحزب ديني للطبقة الحاكمة، وقائم بتبرير الطبقة الحاكمة وأداة في يد الحكام، فإن التشيع كان ينمو وينتشر بين الجماهير والطبقة المحرومة، والشعوب المحتقرة من قبل العرب وغير العرب، والإسلام الحكومي الذي لم يكن يقبل حتى قيمة كونهم بشراً. وفي حكم عمر[١] نرى الطليعة الطبقية لأول مرة، وأنا أؤمن تماماً بأن عمراً مسلم، لكنه كان ذا رؤية طبقية تعود إلى فترة ما قبل الإسلام.. فهو المنادي باعتاق العبيد العرب بعد أن أفاء الله على أحرار العرب(!!) بموالي[٢] كثيرين من الأعاجم وبعد فترة، أثناء حكم عليّ، تقف امرأة إيرانية في خصومة مع امرأة عربية، ويحكم عليّ لصالح المرأة الإيرانية.. وتقول المرأة العربية التي كانت قد

---

(١) يعتبر القوميون عمراً رائداً للقومية العربية. انظر في هذا المجال: (الفكر السياسي الإسلامي المعاصر تأليف حميد عنايت ترجمة مترجم هذا الكتاب. مكتبة مدبولي ١٩٨٩م). «المترجم».

(٢) إطلاق لفظ «الموالي» على غير العرب واعتبارهم في مرحلة أدنى وملكاً للعرب حتى ولو كان المولى مسلماً.. انظر شوقي ضيف: العصر الأموي.. «المترجم».

خرجت لتوها من عهد عثمان: لماذا لم تفرق بين معاملتي ومعاملة هذه المرأة الأعجمية؟!! ويجيب عليها عليّ آخذاً قبضتي تراب واضعاً إياهما أمام المرأة العربية قائلاً: أي فرق بين قبضتي التراب هاتين؟! هل ترون رؤية كل من القائدين وموقف كل منهما؟! أحدهما يفكر بشكل طبقي تماماً.. والآخر لا طبقي.. أحدهما صاحب رؤية ترجع إلى ما قبل الإسلام.. والثاني صاحب رؤية إسلامية.. الأول مظهر لأهل السنة والثاني مظهر للتشيع!!

هذا التحزب الطبقي لم يكن فحسب بعد الرسول، بل كان أيضاً في زمانه وفي صدر الإسلام، بل نرى التشيع أيضاً في عهد الرسول ذا سحنة حاسمة وواضحة ولا طبقية. وفي غزوة بدر ـ حيث كان الرسول بنفسه قائداً ـ يقع خلاف بين بلال وعبد الرحمن ابن عوف ـ فبلال يرى أن أمية بن خلف وهو من أكبر أشراف مكة ـ هو رأس الكفر والدنس، وينبغي أن يقتل، لكن عبد الرحمن بن عوف، بالرغم من أنه من المهاجرون، يعد من الناحية الطبقية متصلاً بأمية بن خلف مع أنه من المشركين.. ونهض للدفاع عنه، ذلك أنه يرى أن أمية بن خلف رجل محترم ومن العظام، وذوي الحيثية.. ومن أولئك الذين عاشوا عمراً في مكة في سيادة.. وكان بلال خاصة عبداً لديه وسامه سوء العذاب.. هذه صلة طبقية، رابطة طبقية، وهي أقوى من الرابطة العقائدية، ودليلها الأكثر وضوحاً عم الرسول أبو لهب الذي كان في صف بني أمية ومعادياً لبني هاشم، بينما يأتي أشخاص عاديون من بني أمية ويسجنون مع المسلمين في شعب أبي طالب. كل تفكير عبد

الرحمن في نجاة أمية بن خلف، وكل تفكير بلال في قتله، ويأخذ عبد الرحمن بيد أمية بن خلف ويد ابنه «علي بن أمية» ويقول هذان أسيراي، ويمسك بلال بأيديهم ويصرخ بأنه ينبغي قتلهما. . ويصر على رأيه هذا بأن يمزقا إرباً[١]: وبلال شيعي موقفه الطبقي معلوم، ولا يستطيع أن يتجاوز عن «أمية»، وعبد الرحمن ليس شيعياً، فهو يدافع عمن هو في طبقته مهماً، لم يكن على عقيدته ورسول الإسلام يأمر قبل موقعة بدر محذراً من الاقتراب من مستضعفي أهل مكة. . بل أن يكون الهجوم كله على الرؤساء، وفلذات الأكباد، وأخذ أشراف قريش[٢]. ترون أن الموقف الطبقي لبلال واضح، وهو متأسٍ فيه برسوله الثوري اللاطبقي. . والذي لا يستطيع أن يشفق على ارستقراطية «بني أمية».

ثم نرى بلالاً مع عثمان في المدينة، عندما كانا معاً من الصحابة، ولم تكن الشورى قد حدثت بعد، والوصاية وكل ما حدث من خلاف، والرسول موجود، لكن التشيع بهذا المعنى الذي أقوله يبدي نفسه، فالمدينة محاصرة بالامبرياليين والصهاينة: الارستقراطية العربية واليهود، والمسلمون يحفرون خندقاً حول المدينة، والرسول نفسه ـ لا بصورة رمزية أو شرفية فخرية ـ يملأ حجره بالحجارة ويصبه خارج الخندق، ويساعد أحياناً الآخرين من المرضى والشيوخ. وفي ذلك الوقت. . في مثل هذا الوضع. . هناك

---

(١) الرواية واردة في سيرة إبن هشام ج٢، ص٦٣٢ من طبعة البابي الحلبي قاهرة ١٩٥٥. «المترجم».

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج٢، ص٦٢٥ وما بعدها.

عثمان. . لقد دفع مالاً من أجل شراء فؤوس ورفوش وأدوات حفر الخنادق، ويعتبر شخصية أعلى من أن يحمل الحجر ويقوم بأعمال الفعلة، إنه يتكىء على عصاه وينظر إلى العمال ـ والرسول نفسه منهم ـ وينشد عمار آنذاك شعراً ما معناه أن ثمة فرقاً بين أولئك الذين يتكئون على عصيهم وينتقل البيت لآخر، ثم منه إلى ثالث، ويترنمون به كأنه شعار، يترنم به سلمان وينقله لعلي ومنه إلى صهيب، ومن صهيب إلى بلال. . ومن بلال إلى شيعي آخر.

واضح أنه منذ عهد الرسول كان هناك جماعتان، وهناك جناحان في الإسلام، وكلا الجناحين مسلم، لكن الموقف الطبقي مختلف، ومن هنا فإذا قلنا: إن عثمان على سبيل المثال قد أسلم من أجل الخلافة ومن أجل أن يصبح خليفة على المسلمين لكان هذا دليل جهل. . لقد كان مسلماً، وصار مسلماً لكن من الناحية العقائدية فحسب دون أن يغير من موقفه الطبقي. على كل حال. . نرى في عهد الخلفاء الراشدين أن الميل إلى اليمين حقيقي، فأبو بكر يحوم حول اليمين، وعمر يضع فيه قدماً، وعندما يصل الدور إلى عثمان تقفز الخلافة إلى اليمين، وتقع في «حجر» بني أمية، وانتصار بني أمية وهزيمة علي يعنيان تحديد المصير التاريخي للإسلام من الناحية الاجتماعية.

وينتصر بنو أمية كمجموعة رمزية تبين كل القيم الارستقراطية الجاهلية للطبقة الحاكمة لجناح اليمين على مر التاريخ، ويأخذون قيادة الحركة رسمياً. . والعناصر المضادة للثورة. . عناصر ما قبل الثورة. . تنتصر في لباس الثورة في الصراع مع علي كآخر إنسان

يقاتل هذه الجماعة رسمياً، ويعتبر قتاله استمراراً للقتال الذي قام به الرسول في بدر والخندق ومكة مع بني أمية. وبظهور بني أمية. . يجد جناح اليمين الحاكم بالكامل. . وتضيع كل الميول والقيم الثورية أدراج الرياح.

الشيعة بعد انتصار بني أمية: بعد انتصار بني أمية، يقوم الشيعة بمقاومة سرية. . ويبدأ هذا النضال منذ عهد الإمام الحسين آخر خليفة رسمي لم يوفق في الوصول إلى الحكم وقيادة الأمة. ومنذ ذلك الوقت بدأ نضال الجناح المحكوم ـ من الناحية الاجتماعية ـ ضد الطبقة الحاكمة تماماً على كل القيم الحقيقية الثورية الإسلامية، والمشكل في الأمر هو أن هذه الطبقة الحاكمة التي كانت قد دخلت الميدان في عهد الرسول بكل قيمها الأرستقراطية، دخلت الميدان بعد الرسول تحت نقاب الثورة. . وهذا هو مصير كل الثورات في العالم التي تنتصر بسهولة في الجبهة الخارجية؛ لأن الأصدقاء معروفون والأعداء معروفون، لكنها تنهزم في الجبهة الداخلية.

بعد وفاة الرسول تعود الأرستقراطية التي كانت قد نبذت، لكنها تختلف عما كانت عليه في أنها تبرر قيمها الجاهلية بالقرآن والسنة واسم الشعائر الإسلامية، فالأشراف لا يطوفون بالأصنام بل يطوفون بالكعبة، وبدلاً من طرح اللات والعزى في الميدان يضعون القرآن على أسنة الحراب، وللدفاع عن أنفسهم لا يتحدثون عن أساطير الأولين، بل يتحدثون عن الوحي والتوحيد والكعبة والصوم والصلاة في المسجد.

القرآن والسنة والتوحيد والكعبة وشهر رمضان وصلاة الجماعة، والإمام وإمام الجماعة، وكل الأحكام والعقائد التي كانت الطبقة المحرومة من أمثال بلال وأبي ذر ترى أن كل ميلها وقيمها الإنسانية وآمالها معها ومع تلك الشعارات.. وكانوا يلجأون إليها، ويتجهزون بها، ويجعلون منها كلها سلاحاً لهم في جهادهم ضد الارستقراطية، وكان سلاحهم قد خلع وسقط كله في أيدي الأعداء.. وكانت الطبقة المحرومة قد وضعت منزوعة السلاح أمام أعداء في أيديهم سلاح الصديق، حتى يصل الأمر إلى أن علياً ـ مظهر الطبقة المحرومة والنضال الطبقي ـ يسقط مضرجاً في دمه على أيدي أحد «المؤمنين» الذي ارتكب ما ارتكب وهو يصرخ «الله أكبر»، ويستشهد الحسين بفتوى دينية إسلامية، ويقدم كل ورثة الجاهلية تحت عنوان أعظم فاتحي الإسلام.. فهم على مر التاريخ وفي الأرض.. يفتحون العالم ويدخلون الأمم في دين الله، لكنه إسلام لم يعد إسلاماً بعد، بل جاهلية مكسوة بالإسلام ومضادة للثورة وصلت إلى نصرها في قلب الثورة.

من هو الشيعي؟! الشيعي هو ذلك الإيراني أو الرومي أو العربي المحروم الذي لجأ إلى الإسلام فراراً من النظم الطبقية والارستقراطية، ومن أجل الوصول إلى القيادة الإنسانية والعدالة ورفض الطبقية والعرقية، وها هو ذا يرى أن هذا الإسلام موجود، تلك الشعارات موجودة، لكنها سقطت ثانية في أيدي القياصرة والموابذة والقساوسة والبابوات الذين تسموا بأسماء أخرى.. والآن أصبح هذا اللائذ بالإسلام مسلماً، ويعرف أن القرآن كتاب

وحيه، ويريد أن يرتكز على قرآنه كما كان أبو سفيان وأبو جهل يرتكزان على اللات والعزى، ويشرعان سيفهما في وجه القرآن، لكنه يرى أن قرآنه ملاذه ومرجعه في أيدي أمثال: أبي سفيان وأبي جهل، وأنهم هم الذين يكثرون من نسخ كتابه. وأولئك الذين لطخوا أيديهم بدماء عليّ وكل العبيد والمحرومين والمطالبين بالحقوق والعجم، هم الذين يقومون بنشر نسخ القرآن في الدنيا. ونفس ذلك الشخص الذي قيد أئمة الشيعية وذرية الرسول والعترة النبوية بالقيد في السجون الموجودة تحت قصره، يذهب إلى مكة، لكي يؤدي شعائر الحج على أقصى درجة من الفخامة، وأقصى مرتبة من الجلال. والخليفة المجاهد هو نفسه الذي يقم المذابح للسادات العلويين، وينهض لقتل أولئك الذين يتصور أن لديهم أقل أمارة من امارات حب عليّ.. لقد جعلوا من دار الكفر داراً للإسلام، وحولوا المعابد إلى مساجد.. ويريد أن يصرخ قائلاً: كل هذا كذب.. ليس هذا إسلام، ولا يمكن أن يكون هؤلاء مسلمين.. لكن كيف يصرخ ولمن وأين؟! عندما تكون كل أجهزة الدعاية في خدمة النظام، وكل المساجد قواعد دعاية للخليفة، وكل المنابر تكئة له، وكل أئمة الجماعة ممثلون له، وكل الشعراء «راديوهات ترانزيستور» من أجله!!

يريد أن يصرخ ويعلن للدنيا قائلاً: لقد قتل هؤلاء كل أئمتي، وقتلوا أمثال «الحر» و«أبي ذر» و«عمار».. هؤلاء هم الذين أعدموهم.. وكانت مذبحة كربلاء ومذبحة التوابين.. والمذابح في أمم الإسلام على أيديهم.. هؤلاء هم أنفسهم الذين لا يقبلون

إسلام الأمم من أجل الجزية.. حتى تملأ أكياس حرصهم!! يريد أن يقول كل هذا، ويعلن للناس في كل الدنيا.. لكن بأية وسيلة؟! وسائل الإعلام والدعاية في ذلك الزمان هم الشعراء والخطباء.. وهاتان الجماعتان أيضاً في خدمة جهاز الخليفة أو ملتحقتان بالسلاطين التابعين للخلافة.. إذن ماذا يفعل هذا المسلم المضروب بالسياط والذي تعرض للتعذيب؟! لقد كان قبل الإسلام ضحية لجور الحكومات المحلية.. وأصبح الآن ضحية لجور تلك الحكومات المحلية وفوقها سلطة حكومة بغداد.. عاد الآن الساسانيون والأكمينيون، وفرش بساط السلطة لكن باسم الغزنويين والسلاجقة والمغول[1]، وأضيف إليها نظام الخلافة العربي.. وكل هذا تسمى باسم الإسلام والقرآن، وشخص مثل محمود الجلاد الغازي يقوم ٤٥ ألف شاعر بمدحه ليل نهار كمحطم للأصنام ومبيد للمجوس وسومنات[2] والكفر. كل شيء في يد الحكومة وفي خدمة سلطة الخلافة، وكل شعائر الدين ومراسمه مشغولة بتغطية جرائم الحكومة، وتبرير نظم العبودية والاستغلال الطبقي وتقديس سيد السوق، وإقطاعي الريف، وخاقان العاصمة، مدح الجلاد في سحنة المجاهد!!

إذن إلى أين يتجه الشيعي؟! ومن أين يتحدث؟!

عروج علي صحراء كربلاء: في عرفات، عند بداية أعظم

---

(١) الأكمينون والساسانيون حكام إيران قبل الإسلام.. والغزنيون والسلاجقة من الأسر التي حكمت إيران من منطلق سني متشدد..

(٢) وسومنات معبد هندي فتحه محمود. «المترجم».

الشعائر قاطبة، وأكثرها إثارة للانفعال، يحول الشيعي وجهه عن «الحجر» ويتجه إلى كربلاء، ينصرف عن طواف الحجر إلى طواف العشق.. وكل ما قام به من شعائر الحج يبقى في ضوء كربلاء» بلا لون.. وبدلاً من التفكير في «المشعر» و«منى» وشعائر ما بعد عرفات.. يفكر في كربلاء وعاشوراء.. ويقول: تركنا طواف الحجر، وجئنا لطواف العشق، ذلك أن هناك موضع التضحية بكبش.. وهنا ضحي بالابن، هنا ضحى إسماعيل، وهناك فدي إسماعيل.. هنا من الحجر، وهناك من النار والدم، حقيقة لماذا يعظم الشيعي كربلاء بالرغم من استهانته بالحج؟! لماذا يتحدث في أوج مراسم الحج عن عاشوراء وكربلاء؟! لماذا يساعد في توجيه هذا الاتهام إليه؟! هذا الاتهام القائل: إن الشيعة لا يؤمنون بشعائر الإسلام ويصغرون من شأن السنن الإسلامية في ضوء عقائدهم المذهبية؟! لماذا يعود الشيعي من الحج فيتحدث عن الشراء والسوق و«المسجل» وعندما يعود من كربلاء يتحدث عن الزيارة وعن مشاعره؟! ذلك لأنه عندما قبل الحسين الشهادة إنما قبلها لكي تحتفظ هذه الأصول بمعانيها، لم يكن هو نفسه مستعداً لأن تحل مقبرته محل الكعبة، كان هو نفسه وكان أبوه وأمه وأخوه وأخته يأتون إلى عرفات ويبكون أمام الله بخضوع وألم.. وكانوا يهبون هذا المقام وهذه المراسم كل قيمة واحترام في حياتهم.. فلماذا يتجه المتشيع للحسين إلى كربلاء ويعلون من شأن هذا المكان تعظيماً له ولمشهده؟!

تجدون الإجابة على كل هذه الأسئلة عندما تعودون إلى

التاريخ، وترون كيف أن الخليفة هذا العام في الحج. . وكان السنة الماضية في الجهاد. . أما انسنة القادمة ففي شأن آخر!! وترون كيف يقوم بتعظيم الحج وإجلاله، ويصر على إقامة مراسمه بشكل فخم؛ لأن هذا لصالح سلطته وحكومته!! إن الناس البسطاء الذين يأتون إلى الحج ويرون ازدحام الخلق، وعظمة الحج وأبهته، يتذكرون كيف كان العدد قليلاً عندما حج آباؤهم وأجدادهم. . وكيف كانت شعائره تقام بشكل مبسط. . لكن الآن نتيجة لجهاد الخليفة وسعيه في فتح البلاد الجديدة. . وجد الحج كل هذه العظمة وكل هذا الجلال. . وفي حجة هذه الدعاية لا يفكر أحد كيف أبادوا أسرة الرسول؟ وكيف فتكوا بكل الطيبين الأحرار(!!) لا يفهم أحد بأية دماء زكية لطخت كفا هذا الخليفة، كيف يستفيد من هذه العظمة والجلال في الحج لصالحه وصالح دعايته، وأيضاً من أجل شحذ سيفه من أجل أرواح الناس. . ومن أجل البشر والطبقات المطحونة. . بالنسبة للشيعي. . في مثل هذا الموضع الذي يرى أنه بينما يسقط أئمته شهداء، أو في أغلال الخليفة، قد صار تعظيم الحج لصالح الخليفة مباشرة وهو. . الذي يتولى آل الرسول، ويحب الحج في الوقت نفسه، لا يستطيع أن يعظم حجاً صار شعاراً يستفيد منه العدو، عندما يرى الشيعي أن الخليفة يبدى كل هذا الاحترام بالنسبة للحج، لكن لو وصله تقريراً أن أحداً قد توقف قليلاً أثناء سيره إلى جوار قبر أحد الشهداء. . يقضي عليه تحت تعذيبه، ويدرك أن تعظيم الحج في إسلام الخليفة قد صار شعاراً للطبقة الحاكمة، يصبح شعاره ليس الحج الذي يعظمه

الخليفة، بل القبر.. قبر الشهيد الذي يخيف الخليفة إلى هذا الحد.

وهنا أقول: إن أعظم ما يعلم الإنسان ويهديه ويرشده ـ الإنسان الصابر الذي يفهم الجهاد ـ أولاً: الألم.. ثم العدو.. إن العدو هو عامل اتخاذ الموقف الصحيح والاتجاه الصحيح.. ذلك أن كل فكرة هي بقدر ما تجعل العدو يعاني الألم وتؤذيه حديث اليوم.. وكل حق يخرج من فم العدو.. ليس حقاً.. يحدث الشيعي نفسه قائلاً: لقد صارت الكعبة، وصار الطواف بالكعبة قاعدة دعاية عظمى لجهاز الخلافة.. الخلافة التي هي في حد ذاتها مظهر للظلم والجور.. وكل سنة تسوق الناس من أنحاء أفريقيا وآسيا بل وأوروبا إلى هذا المكان، حتى يصبح كل المداحين والخطباء وأئمة الجماعة وعلماء الكلام من الداعين للخليفة، يبلغون أسماع الناس مناقب الخليفة وكراماته. وفي المسجد الحرام ـ إلى جوار الكعبة ـ يجرّعون الناس أكبر مثل للباطل والشرك على أنها أكبر مثل للتقوى والجهاد، ومن ثم تفقد هذه المراسم والسنن والشعارات معانيها، بل تكون بالكامل في اتجاه مضاد للإسلام، ومضاد للمطالبين بالحق، ومعاد للعدالة والوعي بين الناس.

كربلاء أو الكعبة: إذاً وقد سقط الحج كشعار في يد العدو ما العمل؟! الإتجاه معلوم ومعروف، الطواف بقبر الحسين، هو إذاً الطواف حول الكعبة الحقيقية، كعبة الشهيد وكعبة الدم، كعبة الإنسان الذي هو ضحية لنفس ذلك الجلاد الذي ارتدى ثياباً خضراً، ومن هنا ينهض الشيعي في هوى الكعبة ويسري خوف

قطاع الطرق ووحشة الطريق بروحه، ويقطع الطريق من أقصى إيران حتى كربلاء ماشياً على قدميه، وأحياناً عندما كان يعمل إلى جوار قبر الحسين، يعاد من نفس المكان إلى الزنزانات على يد عمال خليفة الله، خليفة رسول الله، ويعدم تحت ضرب السياط وتحت التعذيب.

ومن هنا، فإن زيارة الحج والاتجاه إلى الله ليست بالذهاب إلى الكعبة بل بالذهاب إلى الحسين، حيث يحمل التراب معنى آخر، وحيث يكون للشفاعة أثر آخر ومعنى آخر، وتصبح زيارة الحسين أفضل الجهاد؛ لأن العدو الأعظم يعتبر هذا أعظم مخاوفه.. وإلا فلماذا يطلق عليها الماء ويخرب القبور.. ويقيم المذابح في زوار الحسين، وعندما لا يستطيع أن يرسل شرطته يرسل عماله السريين على أنهم لصوص وسارقون مسلحون يعتدون على أرواح الزوار ويبيدونهم؟! أليس هذا لأن الجهاز خائف ويريد أن يقضي على هذا الفكر، ويريد ألا تطرح هذه القضية حتى تنتسى وتذهب أدراج الرياح؟! إن زيارة هذا القبر التي تمنح جماهير الناس العون على أن يفكروا في ثورة الحسين والجهاد والنضال ضد الظلم، ولا يقعدون عن فضح النظام الحاكم. وهكذا يصبح هذا التراب ـ تراب كربلاء ـ رمزاً وشعاراً، ويقابل الطواف بقبر الحسين مائة طواف بالكعبة.. بل يرجح عليها (ومن الممكن أن يقول بعضهم هنا: هذه هي عادة العوام.. إنهم يتجهون إلى كربلاء.. وأنا أوافق ذلك إنني أتحدث عن مذهب يجري في أذهان العوام وقلوبهم وأتعامل مع حقائق يعبّر عنها في أبسط مراسيم العوام)..

وفي نفس ذلك المكان ـ في عرفات ـ فهمت لماذا كانوا يستطيعون تحويل اتجاههم من الكعبة إلى كربلاء. . وأنا لا أستطيع. . ألاً أعظم بِسُنَّة إسماعيل وإبراهيم. . وهل أتجاهل كل هذه الشعائر؟! الطواف والسعي وما إلى ذلك. . وأقوم عند الحج بالاتجاه إلى كربلاء؟! لكن أيام كان هذا المكان ـ مكة وعرفات والكعبة ـ أعظم وسيلة لجهاز دعاية الجلادين والطبقة الحاكمة. . كان العروج على كربلاء، أمراً طبيعياً!! ترى ماذا كان يعني ميل الشيعة في ذلك الزمان إلى كربلاء وتحولهم عن المراسم الرسمية التي يقودها الخليفة أو نائب الخليفة؟! إلى أي شيء كان يرمز؟! وكيف كان اعتراضاً واحتجاجاً ثورياً تقدمياً؟!! وفي قلب مائة ألف أو مائتي ألف أو خمسمائة ألف من البشر كانوا قد خضعوا تحت سيطرة أجهزة الدعاية الدينية المرتبطة بالخلافة كانت هناك أيضاً جماعة جاءت إلى الحج، وأحرمت، وقامت بكل ما يقوم به بقية المسلمين. . لكنهم في عرفات يقولون أشياء أخرى ويتحدثون عن واقعة أخرى. . ويتحدثون عن إنسان آخر، عن ضحية أخرى وعن طواف آخر وعن كعبة أخرى ونمرود آخر، وشياطين آخرين ينبغي أن يرموا بالحجارة!! تصوروا ـ أن قيام هذه الجماعة من الشيعة مهما كان عددها قليلاً في قلب زحام الداعين للخليفة ـ أية عظمة وقدرة خطرة لكان أن تكون لها؟! إلى أي حد يمكن أن تكون باعثة على اليقظة وثورية؟! وحينذاك نفهم كيف أن جهاز الخلافة كان يعبىء كل قوته حتى يحطم صف زوار آل عليّ ويقف في وجه الثورة؟!

وهكذا ترون أننا إذا جردنا الميل من الكعبة إلى كربلاء من ظروفه وزمانه فإنه يبدو أمراً غير مقبول وانحرافياً ورجعياً. . كما كنت أنا نفسي في عرفات اعتبر هذا الأمر انحرافاً غير إسلامي ومضاد للإسلام، وكنت أعلن هذا: ولو كان الحسين نفسه موجوداً لنهى عنه، لكننا عندما نفسر معناه في مثل هذه الظروف يكون ثورياً ومن قبيل الاعتراض. . كان «الانحراف» من الكعبة إلى كربلاء اعتراضاً في قلب الصامتين «المستحمرين» المحكومين، وينبغي أن يسمع هذا الاعتراض في ظروفه وعصره حتى يمكن إدراك أصالته الإنسانية والإسلامية. تماماً كما ينبغي النظر إلى الدورة الأولمبية لهذا العام في ظروفها وزمانها الحاضرين حتى يمكن الحكم عليها حكماً صحيحاً، وعدم متابعة الضمير الدنس للشرق والغرب الذي أجمع على إدانتها[1] هناك. كان الشيعي يقف في قلب «المستحمرين» من قبل الخلافة حتى يصرخ من الظلم الذي حاق به ويمزق لباس الإخلاص والصداقة الكاذب من فوق جسد العدو. . وهنا قام خمسة أشخاص أثناء المشاهدة بين المتفرجين المستحمرين من الشرق والغرب لكي يخبروا العالم كله. . عما فعله هؤلاء في الشرق والغرب. . وأنت إذا أردت أن تجلس للحكم وإبداء الرأي بعد ألف سنة فعد إلى اليوم إلى هذا العام، وانظر إلى الحادث في قلب اليوم حتى لا تصدر حكماً خاطئاً.

منحنيان متباعدان، معرفتان متناقضتان: بعد السقيفة يوجد

---

(١) المقصود هجوم المقاومة الفلسطينية على البعثة الإسرائيلية في دورة ميونيخ للألعاب الأولمبية. «المترجم».

نوعان من المعرفة: عليّ الإمام المستحق وأبو بكر خليفة غير مستحق(!!).. لكن كلما ابتعدنا عن صدر الإسلام يزداد انحراف منحنى الخلافة نحو اليمين، وفي نظام بني أمية وبني العباس ثم المغول يصبح الحاكم بالتدريج أكثر تمثيلاً لمظهر الشر المطلق ويتخذ سحنة الشيطان.. بينما يمثل عليّ في مواجهة مظهر الخير المطلق ويتخذ سحنة الملاك. ومن هنا يتخذ الخليفة الغاصب في مسيرة التاريخ صورة اهريمن (إله الشر) رسمياً، وفي المقابل يتخذ علي في أذهان التاريخ المحروم للبشر ووجدانه تجلي إلٓه الخير (بعكس أطروحة إله الشر). وفي طبقة ما.. يدان عليّ على الإطلاق بحيث تنكر حتى قيم عليّ الإنسانية من قبل الطبقة الحاكمة، وفي الناحية الأخرى ـ كرد فعل ـ اعترفوا لعلي بقيم الإلهية.. علي الإلهي.. هو عكس أطروحة خليفة الله، وهو مبدأ جدي فحواه أن النسبي يتبدل في مواجهة ضد المطلق إلى مطلق.. ففي التاريخ بينما كان الإسلام يتجه نحو اليمين ـ كان من ناحية أخرى وبنفس النسبة يتجه نحو اليسار.. أقصى اليمين وأقصى اليسار. فمن ناحية يتحول التشيع إلى الشكل الوحيد لموضع تجلي كل الآمال والعقد والمثل الإنسانية المسؤولة والمظلومة، هذا رد فعل حتمي وجدلي للسنة متى كانت قد صارت قاعدة للظالمين الحاكمين ومرتكزاً للارستقراطية والاستغلال الطبقي للأمم.. ومن جهة أخرى يتحول شكل التسنن إلى أكثر المذاهب الحكومية الرسمية انحرافاً ومبرراً للخيانة ومظهراً لجهاز الجلاد. لكن.. ما هي شعارات الطبقة الحاكمة في نظامها هذا، وهو أكثر النظم رجعية

وانحطاطاً وعداءً للشعب وطبقية وارستقراطية وجاهلية؟!! القرآن، السنة، الحج، الجهاد، المسجد، الجماعة.. وماذا يمكن إذن أن تكون شعارات الطبقة المحكومة المحرومة؟! هذه الطبقة التي ترى الشعارات الأصيلة للإسلام في يد العدو، وتنهض للبحث عن شعارات ومرتكزات وأسلحة جديدة، حتى تدعو أيضاً خلال إيقاظها للجماهير وتوعيتها إياها إلى رسالة كان الرسول يدعو إليها تحت شعارات القرآن والسنة والحج والمسجد.. وكلها الآن تدعو دعوة مضادة لدعوة محمد.

من هنا يرتكز الشيعي على «العترة» ما دام الجهاز يريد عن طريق «السنة» أن يبيد العترة ويقضي عليها. وذلك لأنه إن لم توجد العترة، فإن الفقهاء ورجال الدين والدعاة الملحقين بالسلطة يستطيعون بسهولة، وبالشكل الذي يريدونه أن يفسروا «السنة» لصالح النظام.. وقد جعل الشيعي شعاره «الولاية» لأن الجهاز العادي للنبوة وللرسول والمعادي لعلي للقرآن والمعادي للبشر.. الجهاز الجلاد يعتبر نفسه خليفة للنبي وقد جعل النبوة شعاراً له.. ويقوم صباح مساء بطرح النبوة من مكبرات الصوت ومن «الحناجر» المتصلة بالجهاز.. النبوة.. النبوة.. النبوة.. فيأتي الشيعي، هذا الإنسان المنتمي إلى طبقة هي ضحية لهذا الجهاز، يرتكز على «الولاية»، ويتسلح بشعائر رفض الحكومات مهما لبست ووضعت على جسدها من ملابس تقوى وتدين مزيفة؛ لأن الولاية تعني قبول حكومة «عليّ» أو حكومة على شاكلة حكومة عليّ، وما سوى هذا لا يمكن أن يكون موضع قبول حتى لو

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز، وحتى وإن كان قد لعب دور المصلح المتقي المؤمن الزاهد الثوري بشكل جيد وجذب إليه «الرأي العام». وهذا الشيعي كان وحده الذي يمتلك «معياراً» وكان يرتكز على الولاية والإمامة كنظام، وكان يعلم أنه يعيش في ظل نظام جائر خاطىء، وأن الحاكم حقيقة بلا بمعنى، هذا في وقت كان فيه العوام غير الواعين، بل الخواص من أشباه المفكرين شديدي الفتنة بتظاهر عمر بن عبد العزيز بالزهد، وكانوا قد قبلوا حكومته بقلوبهم تحت تأثير شخصيته الفردية بالقياس إلى أسلافه الدنسين، لكن الشيعي بالتعبير العميق للإمام الباقر كان يراه «شخصاً مردوداً في الأرض ملعوناً في السماء» لأن الكلام عن نظام لا عن فرد.

السادة من آل البيت: قضية وجود السادة مطروحة اليوم بالنسبة لكل مفكر، لقد تحولت إلى قضية عرقية في حين أنها لم تكن كذلك، ولا يمكن أن تكون؛ لأن الرقي العرقي يغاير روح الإسلام أساساً، ومغاير للقرآن والسنة بنص القرآن الصريح، والرسول الذي اجتث عبادة العرق من الجذور وسماها «حمية الجاهلية» لا يمكن أن يكون منشأ عبادة العرق في مجتمعه. انظروا إلى قلب تاريخ الإسلام وفي النظم الاجتماعية القديمة تروا أن القبيلة تعتبر أساساً حزباً وجماعة عقائدية متميزة، والروح المسيطرة على قبيلة ما. . متميزة في عدة أجيال منها. وانظروا بعيداً عن قضية النبوة ورسالة الرسول إلى «بني أمية» و«بني هاشم»، فحتى قبل البعثة كان بنو أمية من الناحية الإنسانية والأخلاقية ضعفاء. .

لكنهم أكثر ثراء. . وكان بنو هاشم أقل ثروة. . لكن أكثر سمواً في الكرامة الإنسانية.

كانت القبائل أساساً في الماضي تحتفظ بأشجار أنسابها ودمها وعقائدها وأخلاقها معاً. . لم يكن هناك للفرد بيئة ـ كاليوم ـ أو مجتمع أو مدينة أو دولة، بل كانت بيئته الاجتماعية هما الأسرة وكان المجتمع القومي السياسي، والطبقة الاقتصادية ونظام التعليم والتربية وثقافة البلد أقل منها تأثيراً، كانت الأسرة مجتمعاً حقيقياً مستقلاً ذات روح قوية مشتركة وخصائص متشابهة. ومن هنا كان السادة أسرة كبيرة مركزها عليّ، والاهتمام بالسادة وبني عليّ، هو رفض لبني أمية ومن بعدهم لبني العباس ووجود السادة في حد ذاته كان قاعدة ضد الحكومات والطبقات والنظام الحاكم. إذاً فليس بلا دلالة أو سبب أن يصدر بنو أمية وبنو العباس أمراً بالقتل العام للسادة. . قاصدين محو أي أثر يجدونه من آل عليّ في أي مكان. . ولكي تفهم هذا العداء طف بكل إيران والهند وحتى شمال أفريقيا والجزائر، واسأل لماذا يوجد في كل مضيق وفي كل منحنى جبلي ونقطة استراتيجية. . في كل جبل وسفح دفين من آل البيت ونسل الأئمة. لم يكن هؤلاء مجالاً لمطاردة الحكومات بسبب أصلهم العائلي أو كرامتهم العرقية فحسب؛ لأنه في نفس تلك الأيام كان بعض السادة المهادنين يعيشون مكرمين في البلاط. . بل لأن كل واحد منهم كان عضواً في الحزب العلوي الثوري الذي لم يكن يقبل الحكومات ويعتبر الحكام غاصبين ويقاتلونهم، وكانوا يتمتعون

بعون المطالبين بالعدالة والمظلومين. . ومن هنا فمجيء عدد من السادة من الحسنيين والطالبيين إلى شمال إيران وما وراء جبال البرز، وسط أناس لم يكونوا قد أسلموا حتى القرني الرابع والخامس الهجريين رغم إسلام كل إيران، ولم يقبلوا حكومة الخلافة، جعل هؤلاء يميلون إلى التشيع ويصبحون من الشيعة؛ لأنهم يعتبرون السيد العلوي مضاد للخليفة ومضاد للحكومة. . ومن هنا كانوا يمدونهم بالمال والمساعدة ويتركون لهم حكم جرجان وشمال إيران. . وأيضاً فإن كل هذا الاحترام للسيد والمساعدة القانونية والشرعية والأخلاقية للسادة لم تكن بسبب العرق بل كانت من أجل مساعدة الجبهة المضادة للنظام. . كان نضالاً وجهاداً. . ومن هنا أيضاً كان للسادة في الدول الإسلامية حتى عهد قريب حزب رسمي وتشكيلات ونقابة ونقيب. . وكانوا أصحاب تشكيلات منظمة: فرع في بخارى، وفرع في بلخ، وفرع في نيسابور. . إلى آخره. . وكان النقباء على اختلافهم مرتبطين بالإمام. . كانوا بمثابة أيدي الإمام وأجهزته الدعائية والاقتصادية والسياسية. . ومن كل شعبة كانت الأموال ترسل إلى المركز، وكانوا يتلقون الأوامر بالنضال والجهاد في مقار شعبهم من الإمام ويبلغونها إلى تشكيلاتهم. وكان النقباء ينشرون فقه آل البيت وتراثهم. . الذي كان كالبضائع المهربة موضع مطاردة حتى أذهان الناس وصدورهم، وكانوا يحاربون الحكومات ودعاياتهم الموسعة المنتشرة الرسمية.

النفقات: الخُمس والزكاة: كانت الزكاة في تلك الأيام

ضرائب إجبارية تدفع لجهاز الجلاد، وتنفق على المذابح بين دافعي الزكاة والمحرومين والجماهير.. إذن ففي أثناء ذلك، من أين يجب تأمين نفقات القيادة المناضلة للجلادين آخذي الزكاة وأعداء الجماهير والمحرومين؟! أليس النضال في حاجة إلى تشكيلات؟! وأليست التشكيلات في حاجة إلى التشكل والمال؟ هنا نرى «الخمس» يدفع كميزانية للنضال، وتؤسس «التكية» و«الحسينية» كمركز للتشكيلات المضادة للحكومة.. فالزكاة تحت سيطرة الحكومة.. وعملها تحطيم الجماهير والقضاء على حياتهم، والمسجد هو مركز الدعاية وخطط الحكومة ذات المخالب الحادة المتظاهرة بالعبادة.. والحكومة تبني القصور بأموال الزكاة، وتبرر بناءها للقصور داخل المساجد، ورأسماليو الحكومة يزدادون سمنة بأموال الزكاة: وفي المساجد يصفعون بنجاحهم وجوه الناس.. وفي مقابل هذا النهب والهجوم يدفع الشيعة الخمس.. حتى يوسعوا نضالهم ويبنوا التكايا والحسينيات حتى يجدوا ملجأ لمقاتليهم.. وعندما يرى الشيعي أن الزكاة تستخدم في القضاء عليه، والمسجد هو موضع مقتل عليّ في البداية، وموضع مقتل فكر عليّ في النهاية، يتجه إلى الخمس والحسينية حتى يمنح نضاله الدائم منذ عليّ وحتى الآن.. الإمكان والقدرة. ومن هنا فإن بناء أية حسينية ضربة في جسد الحكومة، وتعدد المساجد وسيلة للفخر الأجوف ودليل على نجاح الحكام.

التقية، التقليد، الشهادة: نرى هذه الأصول الثلاثة في المواثيق التي يعقدها المجاهدون في العالم كله، فالقادة الثوريون

في أنحاء العالم يطلبون هذه الأصول الثلاثة من أتباعهم: «كتمان السر» و«الطاعة التنظيمية» و«الاستعداد للموت» وهذه هي مبادىء الشيعة الثلاثة الموجودة في قلب عقائدهم تحت اسم التقية والتقليد والشهادة.

التقية: بمعنى كتمان السر عند المجاهد الذي يناضل ضد الجهاز في شكل تنظيمات سرية، وإذا صدرت منه كلمة واحدة حتى وإن كانت حقاً، فإنه يكون قد قضى على حياة الجماعة. وكانت المذابح التي تعرض لها الشيعة في نيسابور، على سبيل المثال، بل وفي بغداد، نتيجة فعل ما صدر من أفراد لم يستطيعوا التقية وكتمان السر. هذا هو المرتكز الذي يستند عليه مبدأ الشيعة «استر ذهبك وذهابك ومذهبك»، والمراد كتمان العقيدة والحركة عن الآخرين وتدل على أن: حركتك أيها الشيعي خطرة، حركتك إيجابية وبناءة، وعلى خلاف مصالح العدو والحكومة، وإلا فإن الذهاب خفية عن أعين «الجماعة في البيت إلى منزل «زوجة المتعة» لا تقية فيها لكنها تقية الشيعة الصفوية.

أما التقليد: ففي الفترة التي تكون فيها القيادة غير محددة وغير علنية، ولا تستطيع الأجهزة البرلمانية وأجهزة العلاقات المشتركة والعامة أن تعمل بحرية، ويكون «التطلع» و«التردد» في النضال أمراً خطراً. ينبغي أن تكون هناك طاعة عمياء وتنظيمية، وبمجرد أن يصل أمر من قيادة جديرة بالثقة يجب أن يطاع دون مناقشة، هو نفس ذلك المبدأ الذي يقابل اليوم في النضال السري «أطع القائد دون مناقشة، ولا شك أنه إذا انحرف تستطيع أن تقصم

ظهره خفية، لكن لا تتمرد عليه رسمياً وعلناً». هذا هو معنى التقليد الذي كان موجوداً في التشيع، وكان الشيعة يبررون طاعة الإمام على أساس الآية الكريمة ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(١) ويعتبر أن «أولي الأمر» تشير إلى الإمام الذي اعتبر الله طاعته في مستوى واحد مع طاعته تعالى وطاعة رسوله، ونفس هذا التقليد يعتبر سارياً عند الشيعة للقائد الذي ليس بإمام لكنه يكون نائبه.. ولهذا نرى أن هذا التقليد تقليد اجتماعي وتنظيمي في نظام مسؤول ومجاهد، وليس تقليداً ذهنياً خالياً من المسؤولية.

والشهادة: تعني أنه ليس للشيعي في مواجهة جهاز الحكومة الخلافة من ثروة وسلاح إلا «الشهادة». وأن القول الذي نسمعه: «من بكى وأبكى وتباكى وجبت له الجنة»، ونتعجب لأن الذي يبكي ولديه سبب للبكاء، أو يُبكي ولديه سبب للإبكاء أمر مفهوم.. لكن ما معنى التظاهر بالبكاء الكاذب؟! ودهشتنا لا مبرر لها، ينبغي أن نعود إلى عصر كانت قطرة الدمع فيه كلاماً يبلغ الشهادة رسالة إلى الناس، وكتلقين للنفس، وعلى أن كل صرخة تنطلق من حلق مظلوم مبلغ ظلم الجهاز الحاكم إلى العالم.. وحيثما يعطي الأمر بالبكاء ـ حتى التظاهر بالبكاء ـ يكون البكاء علامة على أن كارثة قد حدثت، وأن ظلماً قد ارتكب، ذلك الظلم الذي كان جهاز الخلافة يجاهد في كتمانه بانتصاراته وفتوحاته وضجيجه حول نجاح حكومة «الإسلام».

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

العزاء: إقامة الحداد، العزاء لا ليوم واحد أو لعشرة أيام ولا لشهر أو لشهرين بل طوال العام.. من أجل ماذا؟ من أجل أنها أمة تعيش في الشهادة، وينبغي أن تكون في حداد، وفي مجلس عزائها تكرر الحديث عن الشهادة والتذكير بشهدائها.. تصنع شهداء جدد.. إنها تقيم مجالس العزاء حتى تنقل الشهادة إلى الجيل التالي والأجيال الآتية، ومن هنا كانت الأجهزة الحكومية تجاهد بكل قواها لمنع إقامة هذه المجالس. وأيضاً من أجل نشر الشهادة يقوم الشيعي في مناسبة وفاة الأخ والعم والخال وابن الخالة وابن العمة بجمع الأصدقاء والأقارب، و«يعرجون» فجأة على كربلاء ويتحدثون عن الحسين وشهداء كربلاء، وآنذاك كان النظام يأمر الشرطة والعسس وأئمة الجمعة الحكوميين، ويهاجمونهم ويأخذونهم للتعذيب، ويلقون بهم في السجون، وفي المقابل كان الشيعي حتى في حفل عرسه يبكي على عرس القاسم[1] ويطرح كربلاء.

المناقب والكرامات: ها أنت ذا ترى أنهم لا يتحدثون عن عليّ، لا يعرفونه.. لكنهم لا يفتأون يتحدثون عن مناقبه وكراماته ويرفعونه إلى مصاف الآلهة.. وأنا وأنت ومن المفكرين نتعجب متسائلين: لماذا كل هذا الغلو؟! لماذا كل هذه المبالغة؟! ما فائدة كل هذا المديح والثناء والأشعار ومعظم المناقب اللفظية؟! قلنا

---

(١) عرس القاسم: روضة تقص كيف تزوج القاسم بن الحسن من آل البيت في كربلاء ثم تقدم للشهادة. «المترجم».

إذا عدنا إلى التاريخ وجدنا الظلم الذي حاق بهذه الأسرة لما توقفنا عن الدهشة فحسب، بل ولاعتبرنا ما يحدث لازماً وليشاركنا فيه!!

لقد جاهدت الأجهزة الدعائية الحكومية بكل إمكاناتها لكي تجعل من عليّ وجهاً قبيحاً غير مسلم: من ناحية: بنو أمية، ومن ناحية: بنو العباس، ومن ناحية ثالثة: الخوارج والمتصلون بهم جميعاً يهاجمون بكل قواهم علياً وآل علي.. على المنابر وفي المجالس، في الدور والشوارع، في أقوالهم وكتاباتهم.. وكانت هذه الدعايات قوية ومقتدرة بحيث إنه بعد استشهاد علي في محراب المسجد.. يتساءل الناس الذين تم استحمارهم: ماذا كان علي يفعل في المسجد؟! وعندما يسمعون أنه قتل بينما كان يصلي يتساءلون أكان علي يصلي أيضاً؟! انظر ماذا يفعل المشايخ المأجورون، التابعون للقصر الأخضر في الشام، ودار خلافة ألف ليلة وليلة في بغداد، بشعور الناس؟! وخاصة في تلك الأيام حيث لا تصوير، لا أفلام ولا طباعة ولا تصوير نسخ وتكبيرها، ولا طباعة أوفست، ولا شرائط تسجيل بحيث يستطيع مسجد الكوفة تكذيب الشائعة!!

ثم ماذا ينتظر من الشيعي أن يفعل في مواجهة هذا الهجوم وهذه الدعايات إلا أن يقوم ـ برغم أنوف هؤلاء الناس ـ بصناعة الوجوه، ومن نفس عليٍّ هذا يصنع وجهاً ربانياً؟!! عندما يحدث ـ حتى الآن يحدث ـ أن يقوم عالمٌ مفكر مكي وهو أيضاً يدير مؤسسة علمية، ويسمح لنفسه بأن يقوم بتوجيه عمل مؤتمر من

أجل الرد عليّ بتهمة ذكر علي كنموذج ممتاز لربيب الإسلام ويقول لي أنا الشيعي: «هذا الـ«علي» الذي تغالون بشأنه كل هذا الغلو، كان رجلاً عاطفياً يصف في كتابه نهج البلاغة العشاق والتاريخ والفاكهة!!» ويبدأ في الهجوم على عليّ، في حين أن قيم عليّ قد تميزت اليوم بحيث يعرفه المسيحي أكثر مما نعرفه نحن.. ولا يزال صاحبنا تحت تأثير دعايات أربعة عشر قرناً خلت، فما الذي كان ينتظر من شيعة القرون السابقة.. قمة دعايات العدو؟! إن الشيعي بغلوه في وصف شخصية علي يقف أمام الجهاز الحاكم ويحول دون هجوم دعايته، ويقاوم بالغلو والمبالغة دعاية قائمة على الحط من شأن عليّ.

إذن فارتكاز الشيعة المحصور على العترة والولاية والإمامة، هو اعتراض على الحكومة والخلافة والزعامة، أما الروايات ووجود السادة ودفع الخمس، وبناء الحسينيات والتكايا، وإقامة مراسم التعزية، والتميز والانفصالية «الانعزالية، الانزوائية» والتقية والبكاء، وإقامة مراسم الحداد، وزيارة المشاهد المقدسة، ووضع المناقب والمدح في الأئمة والتقليد.. والتأكيد على الشهادة.. أمور كلها ينبغي أن تفسر وتبرر في ضوء القدر التاريخي للشيعة، وفي ضوء الرسالة المضادة للطبقية والحكومية، والمتسمة بالجماهيرية، المطالبة بالحقوق والحرية والبحث عن العدالة، رسالة آل علي.. وكلها ينبغي أن تفسر وتوجه وتحدد في موضعها الاجتماعي والعقائدي خاصة عند الشيعة في مواجهة جهاز الخلافة الجبار والنضال وكلها ذات أدوار ثورية عظيمة.

تحريم الموسيقى أو تحريم الغناء؟! ما أقوله: إنه ينبغي وضع كل ما يعتقد به الشيعة في إطاره الاجتماعي والثقافي والتاريخي الخاص في مواجهة الطبقة الحاكمة التي كانت تبرر نفسها وتوجه ذاتها بالقرآن والسنة، ينبغي وضعها في هذا الإطار ثم فهمه بعد ذلك. هذه هي القضية الأساسية التي تساعدنا على فهم جذور كل حكم أو عقيدة أو سلوك أو شعار موجود عند الشيعة، وإدراك معناه وفلسفته وهدفه ودوره.

على هذا النسق فإن كثيراً من القضايا الخاصة بالمجتمع الشيعي ـ حتى عند عوام الشيعة ـ هي اليوم بالنسبة لنا نحن المفكرين الذين نفكر بمنطق الثورة الفرنسية الكبرى، وعصر الليبراليين والديمقراطية والعلم، وتقدم وسائل الإعلام، وعصر الوعي الذاتي ونضج الجماهير، أو ننظر برؤية علمية إلى هذه القضايا ذات الجوانب التاريخية والاجتماعية والتكتيكية والاستراتيجية.. فلا تكون جديرة بالقبول، سوف لا تصبح متجلية في صورتها المنحطة الخرافية الخالية من المنطق.. ليس هذا فحسب، بل سوف نتقبلها ونعتبرها تحررية مليئة بالمعنى، عميقة تقدُّمية، وتدل على ذكاء شديد ووعي واضح من الناحية الاجتماعية والنضال الفكري والسياسي.

وإحدى هذه القضايا، قضية تحريم «الغناء» وهو متواتر بين الشيعة، أما أجهزة الدعوة الشيعية الفعلية التي عجزت عن تقديم تبرير منطقي، وتفسير معقول، وتحليل تاريخي لكثير من العقائد والأحكام الخاصة بالشيعة، فقد عجزت أيضاً في مواجهة انتقاد

المفكرين والجواب على تساؤلهم «لماذا حرمت الموسيقى وهي فن عميق ومؤثر ويمكن أن يكون شديد الإيجابية. . لماذا حرمت عند الشيعة. . خاصة وأنه لا سند لتحريم الموسيقى في القرآن والسنة؟» ويستند بعضهم على الآية الكريمة: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[1]، وافترضوا أن قول الزور وهو «الكلام الفارغ والشهادة الباطلة «دليلاً» على حرمة الموسيقى في القرآن، وهم لا يعلمون أن الموسيقى في الأساس «صوت» وليست «قولاً. » فكأن هؤلاء تخيلوا أن تلك الأغاني الفارغة التافهة التي يتغنى بها المطربون هي الموسيقى، أو عدوا الموسيقى من قبيل «اللهو واللعب»، في حين أن اللعب هو ما يسلي دون فائدة واللهو هو أي عمل أو قول ينفق الوقت أو الطاقة ولا ينتج أي شيء إيجابي، هذا في حين أن بعض أنواع الموسيقى مثل بقية الفنون كالشعر مثلاً، يمكن أن تكون في خدمة الإيمان والروح والعلم وتربية الإحساس وانضاجه وتلطيفه. . وسيمفونية عميقة أقوى تأثيراً من كتاب فلسفي وأخلاقي. . فهل سماع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن[2]، والتي تمنح الإنسان كل ذلك الشعور بالعظمة والاقتدار حرام؟ في حين أن تدخين الأفيون ـ لأنه ليس مسكراً سائلاً ـ حلال؟! أي فقه هذا؟! وهم من ناحية يسألون: إذاً فلماذا يركزون هكذا على «حسن التلاوة» بل وبصوت وحتى في الأوساط العلمية العظمى ويلحون على قراءة القرآن. .

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٠.

(٢) لودفيغ ڤان بيتهوفن (١٧٧٠ ـ ١٨٢٧م) من كبار الموسيقيين الألمان. من أهم تآليفه السيمفونيات التسع وأجملها الثالثة والسادسة والتاسعة. (الناشر).

بألحان معينة (يقصد بقراءات معينة)؟! إذن فلماذا توجد في حرم الإمام الرضا أوركسترا كاملة تدق على النقارات صباح مساء إلى جوار القبة الذهبية المنسوبة إلى «سلطان أرض طوس»؟![١].

وها أنتم أولاء ترون أنه: من ناحية لا يوجد سند واضح ومعيار مُسلّم به في القرآن أو السنة أو العقل أو الإجماع عن تحريم الموسيقى في الإسلام ويبقى سؤال المفكرين: لماذا يُحرّم فن إنساني عظيم بلا جواب، ومن ناحية أخرى فإن تحريم الموسيقى في التشيع مشهور ومتواتر. بحيث لا يستطيع عالم يتبع المذهب الشيعي أن يحكم بالجواز[٢]، ومن ناحية ثالثة فإن هذا التحريم في نظري من أكثر الأحكام منطقية وتقدمية في الفقه الشيعي، ودليل وعي اجتماعي، واهتمام بكل الأحداث السياسية والثقافية والفكرية بل والفتنة التي تجري في المجتمع ضد البشر.

من أجل بحث هذا الحكم الفقهي ينبغي علينا أن نتناول بالبحث ثلاثة أمور:

١ ـ أصل الحكم.

٢ ـ فن الموسيقى.

---

(١) الإمام علي بن موسى الرضا ثامن الأئمة الإثني عشر والمدفون في طوس (مشهد حالياً) وسلطان أرض طوس لقب له. «المترجم».

(٢) كلام الدكتور هذا يعود لأكثر من ثلاثين سنة، أما اليوم فإن هذه المسألة «الموسيقى» هي مسألة خلافية بين فقهاء الشيعة، حيث يذهب بعضهم أن الحرمة ليس بأصل الموسيقى بل «بالعنوان الثانوي» المصاحب لها. «الناشر».

٣ ـ الظروف الاجتماعية والعصر التاريخي لصدور الحكم.

أولاً: الموسيقى فن مثل الشعر الذي يتكون من الكلمة، والرسم الذي يتشكل من الألوان والأشكال، والمسرح الذي يتشكل من الحركة، الموسيقى فن يتشكل من «الصوت»، وينتج من أشكال مختلفة لهذا التركيب مختلف الألحان ويطلق عليها بالمعنى الأعم كلمة الموسيقى. وتقسم الموسيقى من ناحية الأداة واللحن والتأثير إلى عدة أنواع: ملحمية وغزلية وعاطفية ومذهبية وقومية وتقليدية وحديثة وكلاسيكية ووترية وإيقاعية وقائمة على آلات النفخ وما تعزف. وينبغي الحكم على كل منها على حدة والقيام بتقييمها والحكم عليها من عدة نواح: فنية، تكنيكية، مؤثرة، أخلاقية، اجتماعية وفكرية وتخديرية ومثيرة.. تماماً مثل بقية الفنون كالشعر الذي يمكن أن يوضع في خدمة الوعي والإيمان والحركة والبناءوخلق القدرة والشعور في المجتمع. ويكون له دور كسيف المجاهد وقلم المفكر، ويمكن أيضاً أن يكون في خدمة الجنس والنوم والتخدير والإنحراف والبحث عن لذة الغرائز والفساد والانحطاط والهوس، ويكون له دور كالسم والهيروين والمرض والجهل.. والبلاء الذي يمطر المصائب.

لكن الذي طرح في فقه الشيعة ـ هو على خلاف ما راج بين العوام في أيامنا هذه ـ ليس تحريم الموسيقى، بل مصطلح يوجد في متوننا العلمية ويركز عليه فقهائنا وهو «تحريم الغناء»، وكما أن التغزل يعني اصطلاحاً نظم الشعر الشهواني الغرامي، فإن التغني يعني اصطلاحاً العزف والغناء (العزف والصوت)، والمقصود منهما

الموسيقى الشهوانية الغرامية عند مطرب أو مطربة مصحوب عادة برقص الجواري المثير للشهوات، وغناء المغنين لأغان غرامية وشهوانية أو غزل في المحبوب أو قصائد في الممدوح أو هجويات دعائية مختلفة ضد المعارضين . . وهذا بصوت مثير في مجلس اللهو في السهرات الارستقراطية .

ومن هنا يمكن تقسيم الموسيقى اليوم ـ مثل أي فن آخر ـ إلى موسيقى تخديرية وموسيقى محركة، موسيقى إيجابية وموسيقى سلبية، حماسية وغزلية، وبمصطلح المفكرين اليوم: فن مسؤول (فن في خدمة المجتمع) وفن غير مسؤول أو لا مبال (الفن للفن، الفن في خدمة الأحاسيس الشخصية والترفيه والجنس والمتعة). والموسيقى على نوعين: حماسية وغزلية شهوانية، ومن المؤكد أن الموسيقى الغنائية موسيقى الطرب والرقص واللهو والترف والشراب والتخدير هي في الأساس ترجمة للفساد، والمغني نفسه هو المطرب، هو نفسه ما كان يعرف في الماضي من فن المطربين والغجر والمواشط وجماعات الرقص والطرب والطبل والموسيقى، واليوم، تسمعه كبرامج فنية في الملاهي الليلية والسهرات والمراقص والشاليهات وبرامج «غمزه» و«شو» و«ما يطلبه المستمعون» و«رقص وموسيقى» في الجماعات الفنية المسرحية في «لا له زار» و«رقص وموسيقى» و«القط الأسود» و«الخنافس» و«الجاز الأمريكي» و«جوني هوليداي» و«الفس بريسلي»، في الأفلام والأذاعات المسموعة والمرئية والصالات والحفلات. هذه ليست موسيقى، بل «غناء»، أما سيمفونيات

شوبان[١] وموتسارت[٢] وبيتهوفن وباخ[٣] فليست غناء، ليس بيتهوفن مغنياً وعندما كان بسمارك[٤] الرجل الحديدي في ألمانيا يسمع السيمفونية الخامسة كان الدمع يجري على خديه.. ويقول في حالة من التأمل العميق العرفاني «في هذا العمل أسمع كل أسرار الحياة وخفايا روح الإنسان ولعبة القدر العجيبة». لا يمكن أن تعتبر سواء مع «بابا كرم» و«لماذا لا نرقص»، وأغاني وألحان «شكوفه نو» وموسيقى رواد ملهى «سوسن»، والأغاني التافهة المتعفنة لكريم فكوري والغزليات الهائمة في الخمر، والطرب وأسافل أعضاء المحبوب تلك التي تسعى لنشر الشقاء والمذلة والتخدير، واستسلام الجسد للضعف وعدم المبالاة وعبادة الأوهام وفساد مجتمع كامل، واعتبار عمل يبدي الإنسان قوياً عظيماً إلى هذه الدرجة بحيث يئن «الجبر» تحت ضربات قبضاته القوية شيئاً واحداً من أغان «گلهاي رنگارنگي: ورود متنوعة» التي تتغنى بصوت مخمور:

---

(١) فردريك شوبان (١٨١٠ ـ ١٨٤٩م) مؤلف موسيقي بولوني. نزع في فنّه الى الرومنطيقية. جدّد موسيقى البيانو. (الناشر).

(٢) فولفغانغ موتسارت (١٧٥٦ ـ ١٧٩١م) موسيقي نمساوي من أعظم رجال الموسيقى. له مؤلفات دينية وسيمفونيات عديدة جمع فيها الرقة والصفاء إلى البساطة والسحر. (الناشر).

(٣) يوهان سيبستان باخ (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠م) موسيقي ألماني شهير. له مؤلفات دينية وعالمية رائعة... (الناشر).

(٤) أتوفون بسمارك (١٨١٥ ـ ١٨٩٨م) سياسي ألماني. عمل على تحقيق الوحدة الألمانية. جعل من بلاده قوة أوروبية ودولة استعمارية. (الناشر).

أنا تراب كف قدم كلب محلتك فحسب

ومن له سوف أن يكون تراب كف قدم قلب محلتك

وأن يصدر حكم واحد بشأن الإثنين لأن كليهما من قبيل الموسيقى.

والأن ينبغي علينا أن نعود إلى التاريخ وإلى رسالة جهاد الشيعة في اليقظة، والحركة والالتزام وروح الإيمان والجهاد والتحدي، الموجودة عند الناس، والنضال ضد جهاز الخلافة في الشام وبغداد، والحكام والأمراء والسلاطين والملحقين بهم في كل أبعاده الفكرية والاجتماعية والثقافية والمذهبية والأخلاقية.. نعلم إنه للمرة الأولى كان «الخليفة» معاوية هو الذي أدخل مطرباً قصره الأخضر، كان مطرباً إيرانياً ثم اتجه المطربون من روم وإيرانيين وعرب إلى قصر «الخليفة»، وأخذت تلك السُنَّة التي وجدت في صدر الإسلام، وهي روح الجدية والجهاد والعقيدة والالتزام الموجودة عند المسلمين.. أخذت تبتعد، وأخذ الغناء يروج أكثر في بلاط الخلفاء وعند الطبقة الأرستقراطية، وبلغ أوجّه في عصر بني العباس، بحيث لم يكن بلاط العباسيين هو الذي يحتوي على السهرات الخرافية تقليداً لبلاط آل ساسان فحسب، وأخذ يجذب الموسيقيين من مستوى باربد ونكيسا، بل أخذ يجذب الموسيقيين من كل أنحاء الدنيا من الصين حتى من ما وراء الهند وأسبانيا.. أخذ يجذب الراقصات والمطربات والمغنين من كل مكان إلى دار الخلافة وأخذ هزّ البطن، ورقص الجواري العاريات في مجالس الشراب والشواء والخمر والطرب عند الخليفة يحدث ضجيجاً

وصخباً. وساروا في هذا الطريق حتى نهاية السقوط، بحيث صارت بغداد عاصمة خلافة الرسول ومركز الإسلام مدينة أسطورية، ووجدت قصور ألف ليلة وليلة شهرة الأساطير، ولم يكن رواج الموسيقى والرقص والطرب إلى الغناء محصوراً في بلاط الخلفاء والحكام والسلاطين الملحقين بهم. بل وشاع أيضاً بين الناس ورسخ، وفي هذا السبيل لعب الحكام بل والصوفية الذين كانت تكاياهم قاعدة للسلاطين الغزنويين والسلاجقة والمغول بدور أساسي باسم الرقص والسماع والتصفيق ودق الأقدام.

في مثل هذا الوضع، كان أن نهض القادة والواعون والملتزمون للتشيع الثوري والمجاهدون الممتلؤون، من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ألماً وشهادة وروح جهاد ومشقة من الظلم والجريمة، والواعون بالدعايات والتلقينات الصادرة من الأجهزة الملحقة بالخلافة، ويرون كيف يقوم جهاز الخلافة في نفس الوقت الذي يحدث فيه مذبحة، بل وقصر بغداد في نفس تلك الليالي التي كان فيها إمام الشيعة وقادة الحرية والتقوى والعلم في سراديبه المخيفة مقيدين بالأغلال يتعرضون للتعذيب في أغواره، قد قامت ضجة في الصالات العلوية ذات الفخامة الأسطورية من رقص الجواري وأصوات المغنين ودوران السقاة ومدح الشعراء وثنائهم وتأييد الفقهاء وتبريرهم، ليس رجال البلاط فحسب والأمراء.. بل وجماهير الناس أيضاً أخذوا يتغنون بلحن باعث على السكر، جالب للنوم، مفعم باللذة، وقد انغمسوا في اللاوعي واللامبالاة

والتخدير بحيث نسوا الدنيا وما فيها، وطفقوا يغتنمون اللذائذ للحظة!! إنْسَ صرخات عليّ ودم الحسين ومذابح العلويين وتكديس السجون وفقر المسلمين وذلتهم والكوارث والمظلومين ولا تفكر في هذه المشاغل التي تجلب وجع الرأس «فكأس الخمر في يد، وجديلة المحبوب في الأخرى ورغبتي هي رقص كالسكارى وسط الميدان». وفي أوج بؤس الخلق وضجة المأساة والظلم والجور والجهل هناك خداع آهات عازف الخمر ومطربها.. وهو يعربد بلحن مخمور.

اعزف لحناً يمكن عزف الآهة به على الوتر
وقل شعراً يمكن أن نحتسي معه الرطل الثقيل[١]

هذا هو الغناء، وهذا هو الدور الاجتماعي[٢] المخدر للغناء.. والغناء الحرام.. ليس في فقه الشيعة فحسب بل في نظر كل المفكرين الملتزمين، وكل الجماعات ذات الإيديولوجيات التي تحمل على كواهلها حمل الجهاد الثقيل وإيقاظ الجماهير، بل وفي نظر كل الفنانين بل وكل الموسيقيين الملتزمين الذين ينظرون إلى الفن كعامل نضج وكمال إنساني واجتماعي، ويرون أن له قيمة، ويجعلون مكافحة هذا النوع الهابط من قلب رسالتهم الاجتماعية ومسؤولياتهم العقائدية. ومن هنا فإن الاستعمار الغربي في أفريقيا

(١) البيت لحافظ الشيرازي. نسخة انجوى الشيرازي ص٨١. المترجم.

(٢) ولا يزال الغناء باباً من أبواب الفسق، وفي زمننا دخل الفسق السياسي باب الفساد.. ابتداء من تجلية الزعيم وتحليته في عيون الناس والتسبيح بحمده صباح مساء إلى تحلية السلع الواردة.. إلى ماذا.. لا داعي!! «المترجم».

يركز هذا التركيز على موسيقى الجاز ورقص السود ويحترمهما كل هذا الاحترام حتى يصنع من كل أفريقي ينبغي أن يكون مجاهداً يقظاً يصنع منه راقصاً، ونرى أمريكا المعادية للسود تسعى كل هذا السعي لتفهم الأفارقة أنفسهم أن الجنس الأسود هو في الأساس جنس فنان، ولا جدال أنها تقصد بالفن الرقص والغناء وموسيقى الجاز في أسلوب غنائي، وهو الذي يمثل الفن الأفريقي في عالم الغرب.

ومن هنا فالحلفاء يهدفون ألا تقوم للاشتراكية المهاجمة الخطرة الألمانية قائمة بعد الهزيمة، ومن أجل أن تسترد ألمانيا الروح، ومن أجل أن تشل الروح الحماسية الحربية وتموت وتنسى أبطالها وتتعود على الهزيمة.. من أجل كل هذا يجعلون من «الفيس بريسلي» معبوداً للشباب الألماني، والغناء موسيقى شهوانية مخدرة، وهي في نظام الخلافة رمز للنظام وعامل تخدير للجماهير. وقام الشيعة بتحريمهم للغناء بتوجيه أعظم ضربة للنظام، وفضحوا دوره المضاد للمجتمع، ونهضوا للوقوف في مواجهته.

كل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء: قال جماعة من أصدقائي كانوا قد قاموا ـ بهدف الدراسة لحياة الناس والمأثور الشعبي ـ بالتجوال في زوايا هذه الصحراء الكبرى وحناياها حتى شاهدوا في قرى الطالقان جماعة من ممثلي تعزية آل البيت لديهم ثلاثماية وستون نصّ من نصوص التعزية.. أي أنه يوجد نص لكل يوم من أيام السنة، وهذا يعني أنه إذا جاهدت الحكومة لمحو

ذكرى الشهداء.. فإنه لدينا لكل يوم تعزية مكتوبة.. وإذا كانت الحكومة تجاهد حتى لا تطرح عاشوراء فإننا نجعل من كل يوم عاشوراء ومن كل أرض كربلاء.

سأل أحد المفكرين أحد الشيعة: لماذا كل هذه الضجة وإبراز العواطف والمظاهرات والنداءات باسم الحسين في المحرم وصفر وكل الأسابيع وكل الشهور وطوال العام؟! فأجاب: نحن من لدغتنا الحية.. لقد سكتنا فيما يختص بالغدير وقلنا: التاريخ نفسه يقول أنه في حجة الوداع ـ أعظم مظهر للإسلام جلالاً وعظمة وفي مكان لا يزال معروفاً ومعلوماً حتى الآن.. وفي زمن معلوم.. قدم الرسول نفسه علياً كإمام.. ورأينا كيف أنهم محوا كل شيء.. تجاهلوه من الجذور، ومن هنا فلن نرتكب هذا الخطأ بالنسبة لعاشوراء، ففي الفرح والحزن، في العرس والعزاء، عند شرب الماء وتناول الطعام، في العطش والجوع.. في كل حال نقول: الحسين الحسين.. عاشوراء عاشوراء.. كربلاء كربلاء.. حتى لا ينسى جيلنا ولا تنسى الأجيال التي بعدنا ما الذي جرى للشيعة، ويعلمون ماذا يجري للشيعة.

الذكر والذاكرون: لم يُسَم الشيعة الذاكرين لعاشوراء والمتحدثين بفلسفة الثورة وعاظاً أو متحدثين أو فقهاء وسموهم الذاكرون.. وهذا ليس بالمصادفة ولا يخلو من معنى.. وأعظم رسالة للذاكرين أن يقاتلوا أولئك الذين يستطيعون القيام ضد الظلم ولا يفعلون، وأولئك الذين يبررون التاريخ لصالح الأقوياء أقلامهم، والمؤرخون والكتاب والدعاة والعلماء وعلماء الدين

الملحقين بكل النظم ولا يذكرون الحقائق التي ديست بالأقدام، ويتجاهلون الكوارث والمذابح والرجال العظام وأنواع الاستشهاد، ويتسكعون دائماً حول أرباب القصور وجباة الأتاوات، ويعملون كألسنة لهم.. فالذكر هو ذكر الظلم الذي كان.. ذكر أفظع جريمة ارتكبها من يسمون أنفسهم خلفاء رسول الله، وبفتوى من رجال الدين الملتحقين بالخلفاء، وذكر الجريمة التي ارتكبت وترتكب دائماً بحق الناس والجماهير المحرومة. وهكذا يسمي الشيعة هؤلاء القائمين بالتذكير بأنواع الظلم التي حدثت بالذاكرين.. حتى يقوموا بتذكيرك في وقت وغير وقت وفي كل مكان، وكل زمان بأن دماء أريقت وأي دماء تراق حتى لا يضطر صوت المذهب والمدرسة الفكرية والعدالة إلى الصمت.. ومن هنا فإذا كنت تريد أن تصدق أنك منا، عندما نتحدث عن محمد وعندما نتحدث عن عليّ، عندما نتحدث عن الأئمة وعندما نتحدث عن القرآن.. وعندما نتحدث عن أي شيء عليك أن تعرج على كربلاء وعلى كل ما تفعل، وكل ما تقول ينبغي أن يكون هناك توقيع كربلاء.. حتى تكون موثقة وحتى أقبلها.. فإنني أعترف بمحمد الذي تتجلى رسالته في عاشوراء!! وأقبل النبوة التي تبعث رسالتها الكمال في عاشوراء!!

وقرآني هو القرآن الذي يتصل بكربلاء.. وإبراهيمي الخاص بي هو إبراهيم الذي يتصل بالحسين.. واسماعيلي الخاص بي هو إسماعيل الذي يصل إلى إبن الحسين.

وأنا ـ بدون الحسين ـ لا أقبل أي شيء.. ولا أقبل أي إنسان

وقد قلت في الحسين وارث آدم، أنه عندما يخرج الحسين من الطواف ويشق صفوف الحجاج ويسرع نحو جهة أخرى.. فأي طواف تقوم به أنت؟! حول ماذا تدور؟! وإذا كنت لا تسير في طريق الحسين ولا تصل إلى كربلاء.. فطف حتى تصاب بالدوار، بحيث إن بذروا تحتك بعض الحبوب الزيتية لأنجبت عدة أطنان من الزيوت النباتية.. ولا يمكن أن تكون قيمة طوافك أكثر من هذا.. وهي ليست سوى هذا!!

ومن هنا فإن أكثر الأمور أساسية في الدعوة الشيعية هو الذكر.. التذكير بما كانت الأجهزة تعتبر جره إلى النسيان أكثر الأمور أساسية في دعوته.. ومن هنا فهو ـ أي الذكر ـ عندما يتحدث عن الله والقرآن والحسين فإنه يختم بالحسين ويعرج على كربلاء؛ لأن جهاز الزور والجريمة وجلادي الحكومة يتحدثون أيضاً عن الله والقرآن وسنة الرسول، الحسين إذاً هو الفاصل بين الحق والباطل، والجدار الفاصل بين الجلاد والشهيد في نظام يمتلك فيه الجلاد والشهيد كتاباً واحداً ورسولاً واحداً وديناً واحداً.

لكن اليوم؟! ما هي رسالة الشيعي اليوم؟! أمااليوم فقد جاء الصفوية وهم أنفسهم أكبر من نشر الذكر وكرّم الذاكرين، وهم المؤسسون الأصليون للذكر. والصفوية على خلاف بني أمية، وبني العباس، لا يريدون أن يُمحى ما حدث من الخواطر، بل يريدون أن يُذكر أكثر من ذي قبل.. ألا ينسوا، بنو العباس كانوا يريدون أن ينسى الناس، ولا ينتبهوا إلى أن مثل هذه الحادثة قد حدثت في التاريخ، والصفوية على العكس، يريدون ألا يذكر الناس أن شيئاً قد

حدث في التاريخ سوى هذه الحادثة!! لكن الفرق أن أولئك كانوا يسعون لمحو القصة لكن هؤلاء يسعون لمسخها.. هؤلاء يريدون بنشر كربلاء وتعظيمها وتكريمها أن يفرغوها تماماً من محتواها ويمنحون الشكل فحسب قيمة ويقومون بتجليته.. وبالأمس عندما كانت كل «أجهزة الخليفة» الحكومية، تجاهد من أجل أن تُنسى الولاية والعترة والشهادة والإمامة والعدل وعاشوراء من الذاكرة.. وكان المفكرون ذاكرين من أجل القيام بمسؤولياتهم، يجاهدون بكل وعيهم وشعورهم من أجل أن ترد على الخواطر عمق الفاجعة ومجد ثورة الإسلام وجلالها ونظمها وعصارة روحها.. ولا تنسى.. واليوم وقد قام الصفوية بجعل كل شعارات الشيعة شعارات لهم، ولم تعد هناك بعد شعارات سجون سندي بن شاهك»[١]، وسجون خليفة بغداد بل شعار «عالي قاپو»[٢] فهم يشتغلون بمسخ كل القيم التي حصلنا عليها بثمن غال هو كل هذه الدماء.. وما هي رسالة مفكري الشيعة؟! لم تعد رسالتهم هي التذكير؛ لأن الكل يذكرون، لأن الخليفة صار شيعياً ويذكر أكثر مما يذكر المطالبون بالعدالة والأتباع الصادقون لعلي والمفتونون بالحسين، ويبكي ويتباكى ويتظاهر بالبكاء ويلعن أعداء عليّ ويمدح آل عليّ ويتحدث عن مناقبهم. الآن يواجه المتشيعون الواعون النظام الصفوي المرتكز

---

(١) سندي بن شاهك هو أحد المهتمين بدس السم للإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم أما المتهم الثاني فهو يحيى بن خالد البرمكي. حبيب السير ج١، مجلد ٢ ص٧٦.

(٢) عالي قاپو: كان قصراً لملوك الصفويين في أصفهان التي كانت عاصمة الدولة الصفوية. (الناشر).

على التشيع في نفس الوضع الذي كان فيه الشيعة في زمن بني أمية وبني العباس الذين كانوا يرتكزون على الإسلام، وجعلوا شعارهم القرآن والسنة حتى يُهضم حق عليّ وتُنسى ذكرى الحسين، أي أن تمسخ روح القرآن ومسيرة السنة. . استند الشيعي آنذاك على الذكر وحديث المناقب. . والآن وضعت الأرستقراطية القومية الصفوية نقاب التشيع، وشعارها الذكر، وذكر المناقب حتى تداس حقيقة عليّ ويُنسى فكر الحسين!! ومن هنا فإنه عندما يرتكز البلاط هو أيضاً على الذكر فلا يبقى للذكر دور ثوري بعد، ولا يظل الذاكر مفكراً تقدمياً. . بل أداة دعاية للنظام الراهن. . ومن هنا لا يبقى الذكر رسالة في العصر الصفوي، الرسالة هي «المعرفة» ليس «طرح الحادثة» بل «تحليل الحادثة»، ليس المحبة بل المعرفة، والخلاصة أن نظام التشيع الصفوي لا يرتكز هنا على التشيع المطلق العلوي؛ لأنه قبل الصفوية عندما كان الشيعي يسمع اسم محمد كان من حقه أن يسأل: أي محمد؟! ومن بعد الصفوية عندما يسمع الشيعي ذكر الحسين من حقه أن يسأل: أي حسين؟!

والسلام. . .



الفهرس

التشيع مسؤولية ٥
مسؤولية أن يكون المرء شيعياً ٥
تعريف الإيمان في التشيع ٦
المسؤولية ٧
طرح المأساة ٨
الفن والعلم مسؤولان في الإسلام ١٢
الإسلام يدافع عن الشعر ١٣
الدين في خدمة الدين ٢٠
الدين يعني الطريق ٢٢
دين المسؤولية ٢٤
القرابة بين المداد والدم ٢٧
الأدوار التاريخية للتشيع ٢٩

طرح مشكلات ليست مشكلات ٣٢
الذكر والذاكرون ٥٣
وصفة دواء من أجل مستمع شديد الألم ٥٥
في تاريخ الشيعة ٥٩